نِساءٌ صَغيرات

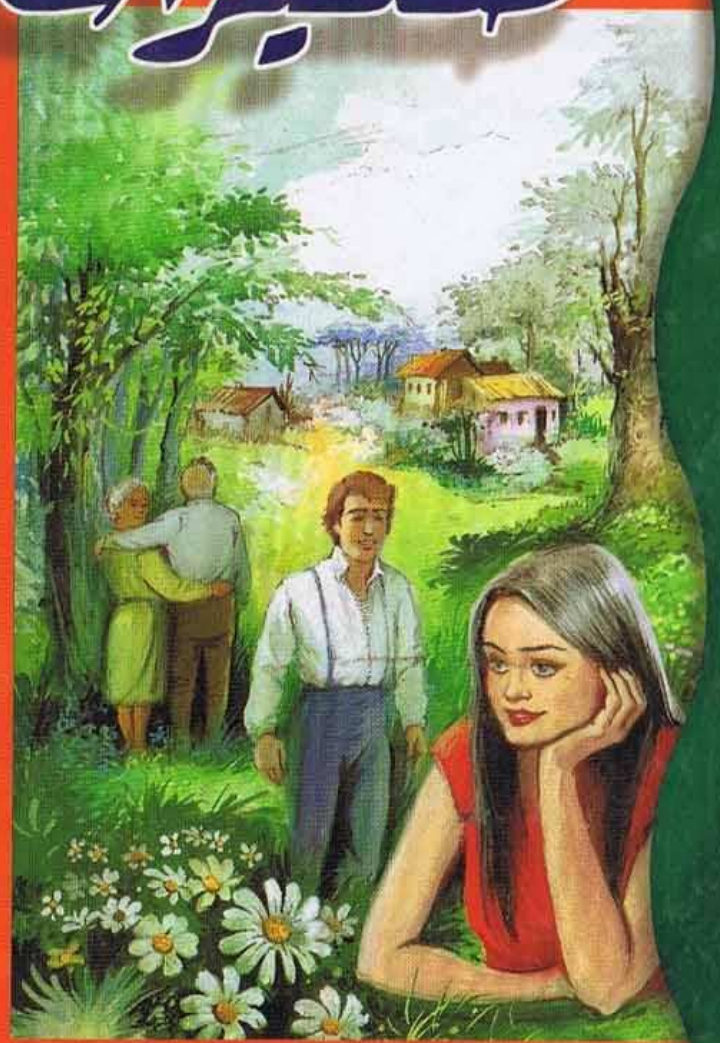

لويزا ماي ألكوت

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

دار العلم للملايين

المكتبة العالمية

نِساءٌ صَغيرات

دار العلم للملايين

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

هذه الرواية

❖ أسرة مارش مكوّنة من أب وأم وأربع فتيات تتراوح أعمارهن بين العاشرة والسادسة عشرة، لكل واحدة منهن ميولها وطباعها وشخصيتها. ما المشكلات التي واجهت هذه الأسرة حين ذهب الأب إلى الحرب، وكيف عملت لتحيا حياة كريمة؟ ما كانت قصص هذه الأسرة على مدى سنوات عشر، وما كانت المفآجات السارة والمحزنة التي عاشتها؟

ISBN 9953-9-6528-5 كتب الفتيان والفتيات 2.5

9 789953 965284 4

مكتبة لسان العرب
رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com
twitter مكتبة لسان العرب
facebook مكتبة لسان العرب
instagram مكتبة لسان العرب

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

نساء صغيرات

لويزا ماي ألكوت

مُرفقة بمجموعة من الأسئلة المنهجية والمفيدة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦١ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

جميع الحقوق محفوظة
لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى

حزيران / يونيو ٢٠٠١

الفصل الأول

أسرة مارش

قالت جو متذمِّرةً وهي تضطجعُ على البساط: «لا يكونُ عيدُ الميلاد عيدًا من دون هدايا». تنهَّدت ميغ وهي تنظر إلى ثوبها الرثِّ القديم قائلة: «إنه لأمرٌ بغيضٌ أن نكون فقيرات». أضافت الصغيرة إيمي بشهقةِ مكلوم: «ليس من العدل أن يكون لبعض الفتيات الكثيرُ من الأشياء الجميلة فيما تفتقر الأخريات إلى كل شيء».

قالت بيث قانعة: «أدام الله أبانا وأمَّنا وأدامَ بعضنا لبعض».

أشرقت وجوه الفتيات الأربعِ برهة لهذه الكلمات المُشجّعة، ولكنها عادت فاكتأبت عندما قالت جو بحزنٍ: «إننا نفتقدُ أبانا وقد نُحرمُ رؤيتَهُ لوقتٍ طويل».

لم تقل: «وقد لا نراه أبدًا». لكن هذه العبارة دارت في خلد كل واحدة منهن وهنّ صامتات. ران الصمت عليهن لدقيقة غيرت بعدها ميغ الحديث قائلة: «أنتنَّ تعرفنَ السبب الذي جعل والدتي تقترح عيد الميلاد هذا بلا هدايا. فنحن سنواجه شتاءً قارسًا، وينبغي ألاّ نُبذِّرَ النقود على المسرّاتِ، فيما يواجه رجالُنا المكاره في الجيش. علينا أن نقدِّم تضحياتٍ صغيرةً عن طيب خاطر».

كانت الصغيرات يأخذن مصروفًا يوميًا ضئيلاً لا يتعدى دولارًا واحدًا. وما كانت أمُّهنَّ لتطلب إليهنَّ أن يتبرَّعْنَ بهذا النزر اليسير. فقد كنَّ يُكابِدْنَ في أعمالهنّ من أجل الحصول على هذه النقود القليلة، مثل تعليم الأولاد المُضجِرين، أو خدمة سيدةٍ عجوزٍ لحوح لا يعجبها العجب، أو غسل الصحون وترتيب المنزل، أو الذهاب إلى المدرسة مع بناتٍ يسخرْن من ملابس الفقيرات.

قالت ميغ مواسية، وهي لا تزال تتذكر أيامًا سعيدة مرَّت بهنَّ: «هل تتمنَّينَ أن تحصلن على النقود التي أضاعها والدنا عندما كنا صغيرات؟ سنكون سعيدات وفي أفضل حال يا حبيباتي إذا خلت الحياة من المنغِّصات».

جلست الأخوات الأربعُ يحِكْنَ شيئًا على ضوء الشفق، فيما كان ثلج كانون الأول يتساقط بهدوء، والنار تتأجَّج في داخل الغرفة القديمة والمريحة على الرغم من بساطة أثاثها. كانت هناك لوحة أو اثنتان معلَّقتان على الحائط، وكتبٌ تملأ فجوات الجدار، وأزهار عيد الميلاد تتفتَّح في النوافذ، فيما يُخيِّم جوّ من السكينة.

كانت أكبرهنَّ، مارغريت، في السادسة عشرةَ من عمرها، جميلةً ممتلئةً، لها عينان واسعتان وشعر بنّيٌّ ناعمٌ وغزيرٌ، ولها فمٌ عذبٌ ويدان بيضاوان تزهو بهما. وكانت جو، ابنة الخامسة عشرة، طويلة، نحيلةً، بنّيّة الشعر يذكِّرنا شكلها بالمُهر لطول أطرافها. لها فمٌ صارمٌ وأنفٌ مضحكٌ وعينان رماديّتان حادّتان. وكان شعرها الطويل الغزير أجملَ ما فيها، تربطه عادة بشبكة. وكان لها كتفان مستديرتان، ويدان

وقدمان كِبارٌ. كانت تنظر باستخفاف إلى ملابسها ومَنظرُها غيْرُ مريحٍ كفتاةٍ تتحوّل بسرعةٍ، كارهةً، إلى سنِّ النُّضج.

أما إليزابيث، أو بيث كما يدعوها الجميع، فهي في الثالثةَ عشرةَ من عمرها، ذاتُ شعر ورديٍّ ناعم وعينين مشرقتين. وكانت تتحلى بطبع خجول وصوت حَيِيٍّ، وتعبيرٍ رقيقٍ. وكانوا يسمّونها تحبّبًا «ماوس» (الفأرة)، أما والدُها فكان يدعوها «الهادئة الصغيرة»، وهي تسميةٌ كانت تُناسِبُها فِعْلاً.

أما صغرى الشقيقات، إيمي، فقد كانت تعتبر نفسها الأكثرَ أهمية من بينهنّ. كانت ذاتَ بشرة بيضاءَ كالثلج، وعينين زرقاوين، وشعرٍ أصفرَ مجعّد يُلامِسُ كتفيها. وكانت تنظر إلى نفسها على أنها شابةٌ تعي ما تفعل.

دقّت الساعةُ السادسةَ وراحت كلٌّ واحدةٍ منهنّ تقوم بعمل ما، فأمُّهنّ على وشك المجيء، وعليهنّ أن يرحِّبنَ بها أيّما ترحيب.

قالت جو: «ينبغي أن تحصل أمّي على زوجٍ من الجوارب جديدٍ».

وقالت بيث: «عليَّ أن أعطيها جُزءًا من مصروفي».

تأثَّرَتْ إيمي قائلة: «كلاّ. أنا التي سأعطيها...»

قالت ميغ: «أنا الكبرى».

فقاطَعتها جو قائلة: «أنا رجل العائلة الآن! أبي مسافر، وقد أوْصاني قبل رحيله أن أعتنيَ بوالدتي».

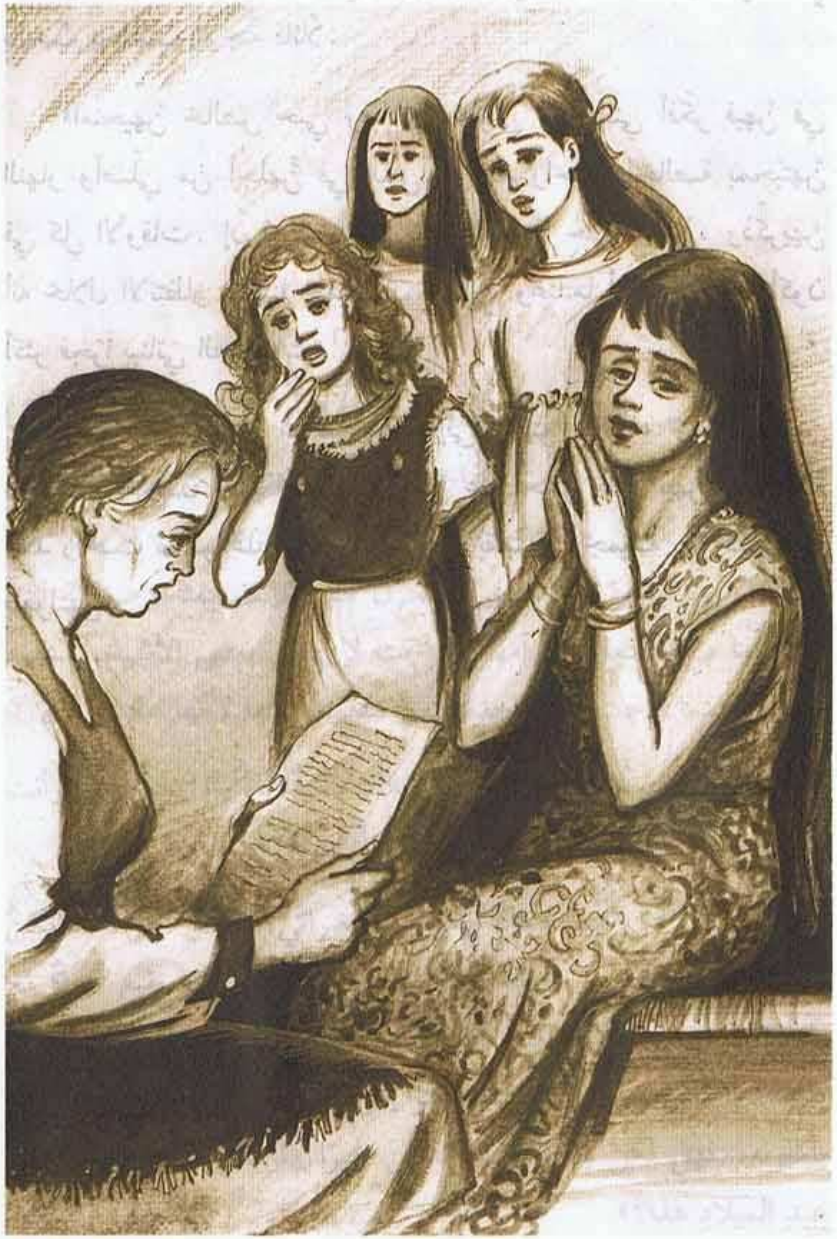

قالت بيث: «لا ينبغي أنْ نختلفَ في هذه المناسبةِ السعيدةِ. فكلُّ واحدةٍ منّا ينبغي أن تمنحها شيئًا في عيد الميلاد».

وراحت كلُّ واحدة منهنّ تعلن عن هديّتها: هذه قفّازٌ، وأخرى حذاء، والثالثة منديلٌ، والرابعة زجاجة عطر. واتّفقن على أن يُفاجِئْنَ أمَّهنّ بما سيقدِّمن لها.

دخلت الأمُّ وكانت سيدةً طويلة القامة، نبيلة الملامح.

قالت الأمُّ بحبور: «كم أنا سعيدةٌ لمرحكنّ يا بناتي.. كيف حالُكنّ اليوم؟» وبعد أن تفقّدتْهنَّ واحدةً واحدةً قالت: «هيّا، لدينا الكثير لنفعلَه اليوم». وما إنْ جلست على كرسيِّها لِتستَريحَ حتى راحت الفتيات يتنقّلن ما بين الردهة والمطبخ لتحضير العشاء. وعندما اجتمعن حول المائدة قالت الأمُّ بسعادةٍ:

«عندي لكنَّ مفاجأةٌ بعد العشاء».

وتعالت صيحات الفتيات يعبِّرن عن فرحهنّ: «رسالةٌ من والدِنا!»

قالت الأمُّ: «نعم رسالةٌ طويلة رائعة. إنَّه بخير، وسيُمضي فصل الشتاء البارد على ما يرام. وهو يهديكُنَّ أطيب تمنّياتِهِ بِعيد الميلاد».

سألت بيث: «متى سيعود إلينا يا أمّاه؟»

ـ «لن تطول غيبتُه كثيرًا يا حبيباتي. سيبقى ليؤدي واجبه بأمانة، ولن نطلب منه أن يحضر قبل الأوان».

قالت الأمُّ: «والآن إليكنَّ الرسالة».

وتحلّقت الفتيات حولها بلهفة. كانت رسالةً تحمل البهجة

والأمل، وتتحدَّث بوصف حيٍّ عن حياته في المعسكر. وبقلبٍ مفعمٍ بالحبِّ يخاطب زوجته قائلاً:

«امنحيهنَّ خالص حبي وقبلاتي. قولي لهنَّ إنني أفكّر فيهنَّ في النهار وأصلّي من أجلهنَّ في الليل، وأجد راحتي الخالصة بمحبّتهنَّ في كل الأوقات. إنّ فترة سنة لَهِي طويلة جدًّا حتى أراهُنّ. وذكّريهن أنه خلال الانتظار يمكننا جميعًا أن نعمل، وعندما أعود إليكنَّ سأكون أكثر فخرًا ببناتي الصغيرات».

وفيما كنَّ يبكين شوقًا ولهفةً إلى رؤيتهِ سالمًا، وهنّ يسمعن الرسالة، تَعاهدن جميعًا على أن يكُنَّ عند حسن ظنِّ أبيهنَّ. أما الأمُّ فقد راحت تحنو عليهنَّ، وتُذكّرهنَّ بقصص جميلة من ذكريات طفولتهنَّ.

الفصل الثاني

عيد ميلادٍ سعيد

كانت جو أولَ من استيقظ صبيحة عيد الميلاد. وسرعان ما صحَتْ أخواتُها الأخريات ليُفاجأن بهدايا أمِّهن: لكلِّ واحدةٍ منهنّ كتابٌ مختلفٌ في موضوعِهِ ولونِ غلافِه. ويُهرعن إلى الأسفل فلا يجدنها. وتخبرهنَّ حنّة، ربيبة المنزل التي كانت بمثابة صديقةٍ لهنَّ أكثر مما هي خادمةٌ، أنَّ أمَّهنَّ خرجت لإحضار بعض الأشياء وستعود حالاً. وبينما راحت كلُّ واحدة منهنَّ تتفقَّد هديتها لأمِّها عادت الأمّ.

صِحْنَ بصوتٍ واحد: «عيد ميلاد سعيدٌ يا أمّاه! كلُّ عامٍ وأنت بخير. نشكرُ لكِ هديّتك. سنقرأ فيها كلَّ يوم».

قالت الأمُّ: «عيد ميلاد سعيد يا صغيراتي! أشكرُ لكنَّ اهتمامكنَّ بذلك. ولكنني أريد أن أقول شيئًا: غيرُ بعيدٍ عن هنا تقبع امرأةٌ مع طفلها الرضيع. عندها ستة أطفال يتزاحمون في سريرٍ واحدٍ كي لا يتجمَّدوا من البرد، فالبيت يفتقر إلى مدفأةٍ، ولا يجدون طعامًا يأكلونه. فهل لكنَّ يا بناتي أن تفعلنَ خيرًا وترسلن إليهم إفطارنا في عيدِ الميلادِ هذا؟»

لاذت الفتيات بالصّمت، فقد كُنَّ جميعهنَّ جائعات. أخيرًا صاحت جو:

«إنني سعيدةٌ للغاية لأنّكِ حضرت قبل أن نبدأ!»

وراحت كلُّ واحدةٍ منهن تعلن عما ستحمله إلى تلك الأسرة الفقيرة من الطعام. قالت السيدة مارش وقد ارتسمت على وجهها علامات الرضى: «كنت أعلم أنّكُنَّ ستفعلن ذلك. فلنذهب جميعًا، وعندما نعود سيكون لدينا خبزٌ وحليبٌ للإفطار، نرجئهما إلى موعدِ الغداء».

وسار الجميعُ إلى تلك الأسرة الفقيرة التي كانت تسكن في غرفةٍ بائسةٍ ذاتِ نوافذَ مكسورة. وفي وسط هذا المكان البارد أمٌّ مريضةٌ في حضنها رضيعٌ ومجموعةٌ من الأطفال الجياع.

صاحت المرأة الفقيرة بدموع الفرح وهي ترى مارش وبناتها: «آه، ملائكة الرحمة هبطت علينا!»

وسرعان ما ساد هذا المكان البائس سعادةٌ غامِرةٌ حيث راحت كلُّ واحدة من الفتيات تقوم بعمل يُدخل الدفء والحنان على قلب هذه الأسرة الفقيرة. ولم يشعرن في يوم من الأيام بمثل تلك السعادة رغم أنّهنَّ لم يذقنْ شيئًا من الطعام الذي حملْنَه.

قالت ميغ بعد أن عدن إلى المنزل: «ما أجمل أن نُؤثر جيراننا على أنفسنا».

وراحت الفتيات يجمعن هداياهنَّ لمفاجأة أمِّهن. ودخلت الأمُّ، فتعالَتْ صيحاتهنَّ بأطيب التمنيات.

كانت الأمُّ مأخوذةً تشعر بسعادةٍ غامرةٍ لما تُقدِّمه لها بناتها من هدايا، وبما يقمن به من تحضيراتٍ احتفالاً بعيد الميلاد. فقد استعضن من الذهاب إلى المسرح بتحضير مسرحية «لغة السِّحر» وقمن بأدائها وتمثيلها بعدما توزَّعن الأدوار فيما بينهنَّ.

وحان وقت العشاء. كان العشاء مفاجِئًا! لقد كانت المائدة عامرة بأصناف الحلوى والمعجَّنات والفواكهِ والورود.

قالت إحداهنَّ بدهشة: «هل هذا سحرٌ!»

ووضعَتِ الأمُّ حدًّا لدهشتهنَّ وتساؤلاتهنَّ: «إنها هدية العجوز لورنس! لقد أخبرتْ حنة أحدَ خدمِهِ عن حفلة الإفطار هذا الصباح، وهذا ما سرَّه كثيرًا. وقد أرسل لي ملاحظةً اليوم قال فيها إنَّه يودُّ أن يعبِّر عن مشاعره نحو أولادي ببعض الهدايا احتفالاً بمناسبة الميلاد».

أبدت الفتيات إعجابهنَّ بالهدايا. وقالت جو: «علينا أن نتعرَّف بهذا الرجل ذاتَ يوم».

ولم تنسَ الفتياتُ والدهنَّ في ذلك اليوم. فقد همست بيث برقَّةٍ: «بوُدّي لو أبعث بهذه الباقة الجميلة من الورد إلى والدنا. أخشى ألاّ تتاح له فرصَةٌ للاحتفالِ بالعيد».

الفصل الثالث

الصبي لورنس

صاحت ميغ وهي تلوِّحُ ببطاقة الدعوة مبتهجةً: «دعوةٌ من السيِّدة غاردنر لمساء الغد بمناسبة رأس السنة الجديدة. ماما تريدنا أن نذهب، فماذا نلبس غدًا؟»

قالت جو: «ما معنى هذا السؤال وأنت تعرفين أنْ ليس لدينا إلا ثوب البوبلين؟»

تنهّدت ميغ وقالت: «آه لو كان عندي ثوبٌ من الحرير».

أجابتها جو: «فستانك ما زال بحالةٍ جيدةٍ، وهو يبدو كالحرير. أما فستاني أنا فمهترئ».

وراحت الأختان تتجادلان بشيءٍ من المرارة حول ملابسهما التي لا تبدو لائقةً تمامًا. ولكنهما عزمتا أخيرًا على مداراة الأمر والذهاب إلى الحفلة الرّاقصة.

وفيما قامت الأختان الصغيرتان بدور الخادمتين كانت الأختان الكبريان تستعدّان للحفلة. وفي النهاية بدتا مهندمتيْنِ على الرغم من

بساطة ثوبيهما: ميغ بثوبها الفضّيِّ وشبكة شعرها المخمليّة الزرقاء، وجو بثوبها الأحمر الداكن وياقتِهِ الصّلبة.

تمنَّت لهما أمُّهما قضاء وقتٍ طيِّبٍ، وقالت لهما: «لا تتأخرا عن الساعة الحاديةَ عشرةَ عندما أرسل إليكما حنّةَ».

مشت الفتاتان على استحياء وتهيُّب فهما نادرًا ما تحضران حفلاتٍ أو مناسباتٍ كهذه. كان حضور هذه الحفلة حدثًا مهمًّا بالنسبة لهما. وعند البِاب حَيّتهما السيدة غاردنر برقَّةٍ واقتادتهما إلى كبرى بناتها الستِّ. كانت ميغ تعرف سالي، واستطاعت أن تندمج معها بسرعة، أما جو التي لم تكُنْ تهتمُّ كثيرًا بالفتيات فقد شعرت بشيءٍ من الوحشة وهي تقف وظهرها إلى الحائط. وتمنَّت لو تنضم إلى مجموعةٍ منَ الفتْيةِ المرحين الذين كانوا يتحدثون عن التزلج في الجانب الآخر من الغرفة، وهو ما كان إحدى هواياتها. وعندما أفصحت عن رغبتها لأختها في الانضمام إليهم لم تلق منها إلا نظرة تحذير. وانفضَّ الجميع من حولها من دون أن يكلِّمها أحد. واستمرت تحدِّق فيمَن حولها إلى أن بدأ الرقص.

وسرعانَ ما دُعيت ميغ إلى الرَّقص، وراحت ترقص غير عابئة بما يُسبِّبه لها حذاؤها الضيّق من ألم. أما جو فقد رأت فتى ذا شعرٍ أحمرَ يقترب منها، فتوارت منه إلى ملاذ آمن ولكنَّها التقت في ذاك المكان صبيًّا آخر وجهًا لوجه. إنه ابن عائلة لورنس.

قالت جو متلعثمةً: «لم أكن أعرف أنّ أحدًا هنا». وحاولَت الانسحاب. ضحك الفتى وقال برقَّةٍ: «يمكنك البقاءُ إذا شئت».

وسرعان ما أخذا يتجاذبان أطراف الحديث ويتضاحكان. وعرَّف الفتى نفسَه باسم لوري لورنس لأنَّه لا يحبُّ اسمَه الحقيقي (ثيودور)، فيما عرَّفت جوزفين نفسها باسم جو. وراح لوري يحدِّثُها عن نفسه وعن السنوات التي أمضاها في الخارج. وشجَّعته أسئلة جو على الاسترسال في الحديث عن ذكرياته في سويسرا. واستطرد كلاهما في الحديث من غير تكلُّفٍ، وقد شعرا وكأنَّ أحدهما يعرف الآخر منذ زمنٍ بعيدٍ.

أُعجبت جو بالفتى وعزمت على أن تحدِّث أخواتها عنه. إنهنَّ محروماتٌ من الإخوة الذكور. راحت تتأمله بإمعان وهي تجاذبه أطراف الحديث وتسأله عن مشروعاته في المستقبل ودراسته. لحظاتٌ قليلةٌ وعزفت الموسيقى لحن رقصة البولكا. وبدت جو مترددّة ومرتبكة في البداية. ولكنّ لوري استطاع إقناعها وراح يعلِّمها خطواتِ الرقصة الألمانية. كانت جو في منتهى السعادة وهي ترقص مع لوري وقد أخذتْها الأحلامُ بعيدًا بعيدًا.

جلسا على السُّلَّم ليلتقطا أنفاسهما عندما توقَّفتِ الموسيقى.

اقتربتْ ميغ فجأةً ودلفتْ إلى غرفةٍ جانبيةٍ، فلحقت بها جو. جلستْ ميغ على الأريكة شاحبةً وهي تتلوَّى من الألم. لقد التوى كاحلها بسبب حذائها الضيّق الذي انكسر كعبُهُ. وكانت قلقة تفكر بطريقة تعود بها إلى البيت. اقترحت عليها جو أن يأخذا عربةً، ولكنَّ ميغ رفضت قائلةً إن العربة تكلِّف كثيرًا، وهي تفضِّل أن تستريح حتى تأتي حنّة.

وحان وقت العشاء واتَّجه المدعوُّون إلى المائدة. قالت جو لأختها إنَّها ستبقى معها. ولكنَّ ميغ أصرَّت على أن تذهب أختُها إلى غرفة الطعام وتتركها، لأنها تريد أن تستريح بعض الوقت. وطلبت منها فنجانًا من القهوة. ولم تكد جو تحصل على القهوة حتى اندلقتْ على فستانها. انزعجت جو لما حدث. ولكنَّ صوتًا رقيقًا قال لها: «هل أستطيع المساعدة؟»

قالت جو مضطربةً: «كنت أحاول أن أُحضر شيئًا لميغ، ولكنَّ أحدهم دفعني فانظرْ ما حصل».

قال لوري: «يا له من أمرٍ مؤسف. هل أستطيع أن أحمل هذا إلى أختك؟»

قالت جو: «شكرًا لك. دعنا نتَّجه إليها».

أمضى الجميع وقتًا طيبًا. وعندما جاءت حنّةُ نهضت ميغ مسرعةً وقد فاتَها ما حصل لقدمِها، ولكنها اضطرَّت إلى أن تتَّكىء على كتف أختها مُبديةً بعض الألم. همستْ ميغ في أذن أختها تُوصيها ألاّ تُفصح عن شيء، وقالت متصنِّعةً: «لا شيء. مجردُ التواء بسيط في قدمي».

نزلت جو إلى الطابق السفليِّ تبحث عن عربةٍ، وفيما هي تبحث عمَّن يستطيع مساعدتها، اقترب منها لوري وعرض عليها أن يوصلهنَّ بعربة جدِّه التي كانت قد وصلت توًّا.

ارتاحت جو لهذا الاقتراحِ ولكنَّها تردّدت في قبوله، وقالت للوري: «أليس الوقت مبكرًا لذهابك؟»

أجابها لوري: «أنا أذهب باكرًا دومًا. دعيني أوصلكنَّ إلى البيت. فها هي السماء تمطر».

قبلت جو بامتنان عرض لوري بسبب وضع أختها السيِّىء، واتجهوا جميعًا بالعربة الفاخرة. قالت جو: «لقد أمضينا وقتًا رائعًا. أليس كذلك؟»

وراحت الفتاتان تتحدَّثان عن انطباعاتهما السارَّة عن الحفلة وعمَّن تعرّفتا إليهم.

وما إنْ انتهى حديثُهما الشيِّق حتى كان الركْبُ قد اقترب من البيت. وما إنْ دلفن إلى البيت حتى قالتِ الأمُّ بلهفةٍ: «أخبراني عن الحفلة».

وراحت الفتاتان تتحدَّثان عن سعادتهما وسرورهما على الرغم من ملابسهما البسيطة وحذاء ميغ الضيِّق وما حصلَ لِقدمِها.

الفصل الرابع

أعباء وهموم

قالت ميغ متنهِّدةً: «ما أصعبَ أن نحمل أشياءنا ونمضي في الصباح الذي يلي الحفلة».

أجابتْها جو: «أتمنَّى لو أنَّ كلَّ الأوقات عيدُ ميلاد أو أعياد رأس السنة!»

ميغ: «من الجميل أن نذهب إلى الحفلات ونعود إلى المنزل بحافلة، ولا نعمل. أنا أحبُّ الرّفاهية».

بدت كلُّ واحدةٍ منهنَّ منحرفة المزاج قليلاً ذلك الصباح. ورُحْن يتشاغلن بأشياءَ شتّى. وساد جوٌّ من التّوتّر دعا السيدةَ مارش إلى أن تصيح بهنَّ قائلة: «اصمتْنَ يا بنات. عليَّ أن أبعث بهذه الرسالة في بريد الصباح».

قالت جو تداعب أختها: «هل أُخِذْتِ بالجوِّ الباذخ هذا؟! انتبهي إلى أنّه لا يمكن أن تظلّي في أحضان العزِّ دومًا. أيتها الفقيرة العزيزة!

عليك أن تنتظري حتى آخذ فرصتي من الحياة، وعندئذٍ ستنالين كلَّ أسباب الرَّفاهية».

ضحكتْ ميغ وقالت: «كم أنت مضحكةٌ». وافترقتا كلٌّ في سبيلها.

عندما فقد السيد مارش أملاكه كي يحاول مساعدة صديق ذي حظٍّ عاثرٍ، توسَّلت الفتاتان الكبريان أن يسمح لهما بعملٍ ما كي تُساعدا نفسيهما. وقد سمح لهما أبواهما بذلك وانصرفتا إلى العمل بهمةٍ ونشاطٍ. وجدت مارغريت فرصة للعمل كمُعلّمة حضانةٍ، وشعرت بأنها مكتفيةٌ براتبها الضئيل. كان الفقر بالنسبة إليها أصعبَ عليها من أن تتحمَّله كالآخرين، فهي لا تزال تتذكَّر ما كانت فيه من عزٍّ وحياةٍ حافلةٍ بالمسرّات. لقد حاولت أن تكون قانعة، ولكن من الطبيعي بالنسبة إلى فتاةٍ شابّةٍ أن تتطلَّع إلى الأشياء الجميلة والأصدقاء المرحين، والحياة السعيدة. كانت ميغ نادرة الشكوى، ولكنَّ شعورًا بالظُلم كان يؤرِّقُها أحيانًا.

أما جو فقد كان عليها أن تعتني بالعمَّة مارش العجوز الكسيحة التي تحتاج إلى من يرعاها. عرضت العجوز العاقر أن تتبنَّى إحدى الفتيات، وكانت شديدة الحزن لرفض طلبها. وعندما التقت العجوز بجو استلطفتها ورقَّ لها قلبُها وعرضت عليها أن تكون مرافقةً لها. لم يرقْ هذا العمل كثيرًا لجو في البداية، ولكنَّها قبلَت به على مضضٍ لعدم وجود بديلٍ آخر. وكان أكثر ما يغريها بالعمل وجود مكتبةٍ ملأى بالكتب الرائعة في بيت تلك السيدة العجوز، تنهلُ منها كلما أُتيحت

لها الفرصة. كانت جو طموحةً تتطلَّع إلى القيام بعملٍ رائع، ولكنَّها كانت تشعر بأنها لا تستطيع أن تنال كلَّ ما تشتهي.

أما بيث فكانت تخجل من الذهاب إلى المدرسة. لقد حاولتْ وعانتِ الكثير ولم تعد تستطيع المتابعة. وأخذ والدها على عاتقه أن يساعدها في دروسها في المنزل. وعندما رحل والدها، تابعتْ بيث دروسها باجتهادٍ معتمدةً على نفسها، كما كانت تساعد حنّةَ في تنظيف المنزل. كان لها متاعبها كالأُخريات. كانت تحبُّ الموسيقى وتحاول جاهدةً أن تتعلَّمها. كانت تحاول الغناء والعزف، وملؤها الأمل في إتقان الموسيقى ذات يوم.

أما إيمي الصغيرة فلم يكن يشغلها سوى أنفها المشوَّه، المسطَّح الذي تعرَّض لحادثةٍ عندما أوقعتْها أختُها جو عَرَضًا وهي صغيرة. إنها فتاةٌ موهوبةٌ شغوفةٌ بالرسم. وكانت شقيقاتُها يدعونها بـ«رافاييل الصغير».

كانت ميغ محلَّ ثقة إيمي، في حين كانت جو محلَّ ثقة بيث رغم اختلاف الطباع.

قالت ميغ بشيءٍ من الضَّجر، وهنَّ جالساتٌ في المساء معًا يَحِكْن الملابس: «أما عند إحداكنَّ ما ترويه لنا؟ لقد كان يومًا مضجرًا وأنا أتلهَّف على شيء من التسلية».

انبرت جو تحكي ما جرى لها في هذا اليوم مع مخدومتها عندما ضبطتها وهي تقرأ في كتاب «راعي أبرشية ويكفيلد»، وكيف طلبتْ

إليها أن تستمرَّ في القراءة وتقرأ لها رغم أنها لم تكن تفهم الكثير مما تسمع.

وراحت ميغ تقصّ حكايةً أخرى جرت معها في عملها ذلك النهار. وأدلتِ الصغيرة إيمي بدلوها وراحت تحكي واقعة حدثَت لها في المدرسة، وكيف تعرَّضت زميلةٌ لها لعقوبة شديدة جَرّاءَ ذنبٍ صغير اقترفته.

وجاء دور الصغيرة بيث لتدلي بدلوها. وروت لأخواتها واقعةً شاهدتها ذلك الصباح. قالت بيث: «عندما ذهبتُ لأُحضر بعض المحار لحنّة كان السيد لورنس في محلِّ بيع السمك. لم يكن يراني لأنني كنت خلف برميلٍ، وكان مشغولاً بالحديث مع السمّاك. دخلتِ امرأةٌ فقيرةٌ بأسمالٍ بالية وسألت السمّاك أن تنظّف له محلَّه مقابلَ القليل من السمك لأطفالها الجياع. رفض السمّاك طلبها بلهجة جافّة. وهمَّت بالخروج وقد ارتسم على وجهها الحزنُ وعلاماتُ الجوع. نظر السيّد لورنس إلى سمكةٍ كبيرةٍ وحملها وناولها إياها. كانت سعادتها لا توصف إزاء هذه المفاجأة. احتضنت السمكةَ بسعادةٍ وخرجت مسرعةً وهي تدعو للسيّد لورنس بالخير والبركة».

ضحكتِ الفتيات بعد أن سمعن قصة بيث وطلبن من أمهنَّ أن تقصَّ عليهنَّ شيئًا.

قصّت عليهنّ الأمُّ كيف كانت تفكّرُ في أبيهنَّ هذا الصباح وهي ترتق بعض الثّياب، وكيف دخل عليها رجلٌ عجوزٌ ارتسمت على

وجهه علامات الفقر والإعياء يطلب بعض الملابس. وحكت لهنَّ الأمُّ ما رواه لها ذلك الرجل العجوز الذي قدَّم أولادَه الشبابَ الأربعةَ إلى الجيش للدفاع عن الوطن، فمات منهم اثنان وسُجن ثالثٌ، ولم يبقَ له إلا ولدٌ واحدٌ. ومع هذا، فقد كان سعيدًا لما قدَّمه لوطنه. قالت الأمُّ: «لقد شعرت بالخجل من نفسي. لقد أعطيت الوطن رجلاً واحدًا واعتقدت أنّ هذا كثيرٌ جدًّا، في حين أنّه قدَّم للوطن أربعةً من دون مِنّة».

الفصل الخامس

حُسنُ الجوار

سألت ميغ وهي ترى شقيقتها جو تدبّ بحذائها المطّاطيّ وقد وضعتْ قلنسوةً على رأسها، وحَمَلتْ مكْنسةً طويلةً بيدٍ ومِجْرفةً باليد الأخرى: «ماذا بربّك تنوين أن تفعلي يا جو؟»

وفيما انصرفت ميغ إلى القراءة راحت جو تحفر ممرّاتٍ بهمّةٍ ونشاطٍ. وسرعان ما حفرت ممرًّا حول الحديقة بكاملها يفصل ما بين منزل مارش ومنزل السيد لورنس. وفيما كان المنزل الأوّل يبدو شاحب المظهر كان الآخر دارًا غنّاء تنطق بالعزّ والرّفاهية. لكم ودَّت جو أن تقتحم هذا العالم السحريَّ وتتعرَّف بـ «ابن لورنس». إنها تتوق لرؤيته منذ أن تعرَّفت به في الحفلة، وقد خطَّطت بكلِّ الوسائل كي يكونا صديقين. افتقدته بعدما ظلَّ فترةً لا يظهر، واعتقدتْ أنه ربما رحل، ولكنها رأت وجهه ذات مرةٍ يطلُّ من النافذة. كانت نظراته تنمُّ عن حزن. قالت جو في نفسها: «ذاك الفتى يفتقر إلى المجتمع والمرح. إنّ جدَّه لا يعرف مصلحتَهُ ويعزله وحيدًا. إنّه بحاجةٍ إلى شابٍّ كلُّه حيويةٌ. لَكَم أودُّ أن أصعد إلى السيد المبجَّل وأخبره بذلك!»

أسعدتْ هذه الفكرة جو التي كانت تحبُّ القيام بأعمال جريئة. ولم تكن الوسيلة تعوزها، واستطاعت أن تلتقي لوري بالفعل. كان لوري يبدو شاحبًا فسألته جو عن صحته. أجابها بأنه أفضل الآن بعد وعكة برد أصابته وأقعدته أسبوعًا في البيت. وجرى بينهما حديث ودّيٌّ، وتواعدا على اللقاء، بعد أن تَستأذنَ جو والدتَها.

وسرعانَ ما عادت جو ودلفتْ إلى القصر وقالت للوري بمرح: «ها أنذا أفي بوعدي. أمي تبعث إليك بتَحيّتها وتتمنى أن أفعل شيئًا من أجلك. وميغ أرسلت لك بعض الحلوى في حين أصرّت بيث على أن أحضر قططها الصغيرة لعلَّها تدخل المسرَّة على قلبك».

وراحت تعيد ترتيب الغرفة وتوضّب أثاثها وهي تحادث لوري. واستطاعت في لحظاتٍ أن تُضفي على المكان جوًّا مختلفًا.

كان لوري سعيدًا بما تفعلُه جو. وجلسا على مقعدٍ وثيرٍ وراحا يتجاذبان أطراف الحديث. كان لوري مريضًا ووحيدًا وقد أحسَّ بسعادةٍ غامرة لما غمرته به من حنان كان يفتقر إليه. وطلبت إليه جو أن يأتي لزيارتهن. وقالت له مشجِّعةً: «إنَّ أمي إنسانةٌ رائعةٌ وسوف تغمرك بالحبِّ والحنان. سنمضي أوقاتًا ممتعةً معًا». وتساءلت جو:

«ألا يسمح لك جدُّك بالذهاب؟»

ـ «أعتقد أنه سيسمح لي إذا ما طلبتْ منه أمُّك ذلك. إنَّه كريمٌ جدًّا وهو يسمح لي أن أفعل ما أريد، لكنَّه يخشى أن أزعج الغرباء».

قالت جو: «ولكنَّنا لسنا غرباء، نحن جيرانٌ. ونريد أن نتعرَّف بكَ».

وشكا لها لوري جوَّ الوحدة الذي يعيش فيه في قَصْرِ جدِّه. فحثَّته جو على الخروج من هذه العزلة وزيارة أماكنَ كثيرةٍ. وقالت له مشجِّعة: «سيكون لك أصدقاءُ كثيرون. لا بأس أن تكون خجولاً الآن فهذا أمرٌ لن يطول».

وراحا يتحدَّثان في أمور شتَّى حتى وصلا إلى الكتب حيث اكتشفا أن هواية القراءة تجمع بينهما. واقترح لوري أن يريها مكتبة جدِّه. كانت غرفة المكتبة مملوءةً بالكتب وشتَّى أنواع التحف الغريبة، والطنافس. قالت جو وهي تغوص في كرسيٍّ من المخمل متنهِّدةً:

«يا للثّراء! أظُنُّ أنك أسعدُ فتى في العالم يا لوري».

ويُقرع الجرس، وتنهض جو فجأةً بشيء من الهيبة وتقول: «إنَّه جدُّك!»

يشعر لوري بتهيُّبها فيحاول أن يهوِّن الأمر عليها. ويدخل الجدُّ من دون أن تنتبه إليه جو، التي راحت تعبِّر عن مشاعرها إزاء الجدِّ بعد أن حدّقت طويلاً في صورة له على الحائط. كان تعليقها جريئًا. وعندما تنبّهت إلى وجوده فجأةً شعرت بالخجل وباضطرابٍ شديدٍ. وودَّت لو تستطيع الهروب. ولكنَّ نظرات الجدِّ الحانيةَ سرعانَ ما بدَّدت الكثير من مخاوفها. قال لها الجدُّ بعد لحظاتٍ من الصّمتِ:

ـ «إذن فأنت لا تخافين منِّي، أليس كذلك؟»

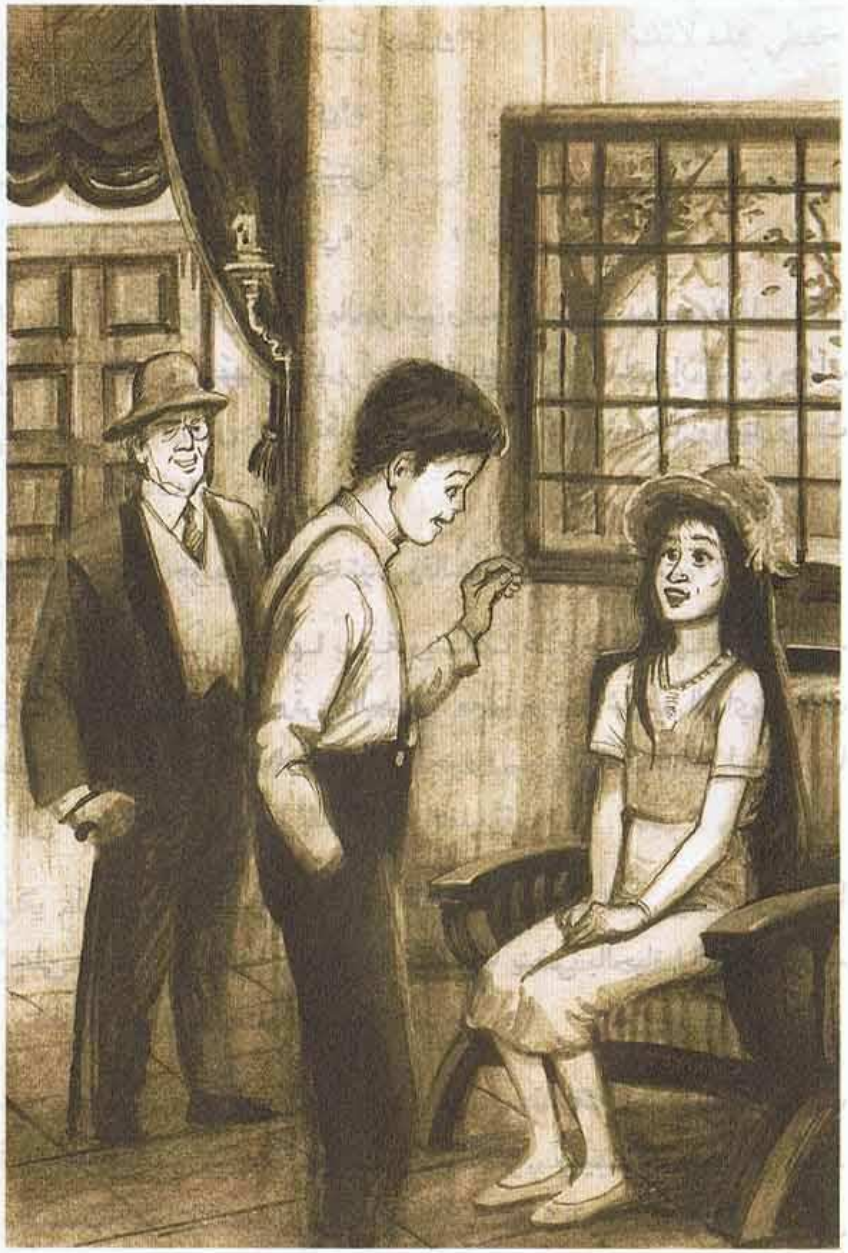

- «ليس كثيرًا يا سيدي».

- «وأنتِ لا ترينني وسيمًا كجدِّك؟»

- «ليس تمامًا يا سيدي».

- «ومع هذا فأنت تحبّينني؟»

- «نعم أحبك يا سيدي».

أُعْجِبَ الرجل النبيل بالجوابِ وضحك ومدَّ يدَه مصافحًا. وقال وهو يتفحَّص وجْهَها مومِئًا برأسه: «لديكِ رُوحُ جدِّكِ وإن كان وجهُكِ لا يشبهه. كان رجلاً رائعًا وعزيزًا عليَّ. كان شجاعًا وأمينًا وكنتُ فخورًا بصداقته».

شعرت جو بالراحة عندئذٍ، وقالت: «شكرًا يا سيدي».

وراح الجدُّ يحادثُها برقَّة ويسألها عن حال أمِّها، وقال إنَّه سيزورها ذات يوم. وقُرع الجرس معلنًا وقت شرب الشاي. فقال الجدُّ: «هيّا لنحتفلَ بعلاقة حُسْنِ الجوار». ومدَّ الجدُّ ذراعَه ليصطَحِبَها إلى قاعةِ الشاي على طريقة النُّبلاء التقليديَّة.

لم يَفُتِ الجَدَّ وهو يحتسي الشاي أن يراقب الفتى والفتاة وما طرأ على حفيده من تغيُّراتٍ. لقد صار وجهُه ينبض بالحياة والنُّور، وطبعه يتدفَّق بالحيوية، وضحكتُه تشعُّ بالمرح.

وبعد تناول الشاي اصطحب لوري صديقته جو إلى المستنبت الزجاجيِّ الذي بدا لها شيئًا أشبه بالسِّحر. وفيما كانا يسيران وسط الأشجار والنباتات التي تخلب الألباب، كان لوري يقطف بعض

الورود والأزهار حتى تجمّعت في باقةٍ قدَّمها إليها قائلاً: «أرجو أن تعطي هذه لأمِّك».

ودلفا إلى قاعة الاستقبال حيث كان السيد لورنس يجلس عند المدفأة. ولفت نظرَ جو بيانو ضخمٌ كان ينتصب في الغرفة، وسألتْ ملتفتةً إلى لوري: «هل تعزف؟»

وألحّت عليه جو أن يعزف لها مقطوعةً ما. وعزف الفتى عزفًا بدا لجو رائعًا. جاء الجدُّ إليهما وشكر لجو تشجيعَها لحفيده على العزف، وعبَّر عن امتنانه آملاً أن تزورَهما ثانيةً. وطلب إليها أن تنقلَ تحيّاتِه إلى أمِّها.

ودّع الفتى فتاته متمنّيًا لها ليلة طيِّبة واعدًا إياها بأن يزور أسرتها عندما يَبِلُّ تمامًا من مرضه.

عندما حدّثت جو أهلها عن مغامرتها بعد ظهر ذلك اليوم، شعر الجميع برغبة في زيارةٍ جماعيَّةٍ للقصر، حيث كان لكلِّ فردٍ أسبابه لمثل هذه الزيارة.

لاحظتْ جو قبل خروجها من دارة آل لورنس أن الجدَّ لم يكن سعيدًا جدًّا لعزف حفيده. وهذا ما دفعها إلى أن تسأل أمَّها عن سرِّ ذلك.

فقالت لها الأمُّ: «ربما يعود ذلك إلى أن والد لوري قد أحبّ شابَّةً إيطاليةً موسيقيَّةً ولم يكن الجدُّ سعيدًا بذلك. كانت جيِّدة وودودةً ولكنَّ السيّد لورنس لم يكن يحبُّها، وقد تزوّج ابنه بها ورحل معها،

ولم يعد السيد لورنس يرى ابنه بعد ذلك. ومات الأبوان عندما كان لوري صغيرًا، فعاش في كنف جدِّه. ولعلَّ الجدَّ يخشى أن يفقد حفيده، وهذا ما يجعله حذرًا. إنّ حبَّ لوري للموسيقى أمرٌ طبيعيٌّ، وربّما يخشى الجدّ أن يصبح حفيدُه موسيقيًا فيذكره بالمرأة التي كرهها».

قالت جو بدهشة: «يا للسُّخفِ! لماذا لا يصبح موسيقيًا إذا كان يريد ذلك؟!»

الفصل السادس

بيث تُعجَبُ بالقصر

كان «البيت الكبير» قصرًا جميلاً حقًّا. وكان الجدُّ لورنس يلاطف جميع الفتيات، ويسترجع مع أمِّهنَّ ذكريات الأيّام الخوالي. وحدها بيث كانت تشعر بشيء من الرهبة منه والخجل. كانت تفكِّر بأنهنَّ فقيراتٌ ولوري غنيّ، وهي وأخواتُها يخجلن من قبولِ معروفٍ لا يستطعنَ سداده. ولكن سرعانَ ما تبدَّدت هذه المخاوف عندما قالَ الجدُّ إنه يشعر أنهن يحسنَّ إليه ويملأن حياته في حينَ أنَّه لا يقدِّم ما يكفي للتعبير عن امتنانه لهُنَّ.

ما أجملَ الأوقات التي كُنَّ يمضينها في القصر، وما أكثر المباهج والمسرّات. كانت كلُّ واحدةٍ منهن تجد ما تتمنّاه، حتى إنّ ميغ أطلقت على القصر اسم «قصر النعيم». وكنَّ يتصرّفْن أثناء وجودهنَّ فيه وكأنَّهنَّ في بيتهنّ. اعتقدت بيث أن الجدَّ لورنس لا يرغب في أن يعزف أحد على البيانو، لكنّ الجدَّ عرف كيف يلاطفها ويداري مشاعرها ويدعوها إلى العزف. وألحَّ على دعوتهنَّ إلى الحضور إلى القصر في أيِّ وقتٍ يرغبْن. وعندها أحسَّت بيث بالاطمئنان والامتنان،

وأعربت عن رغبة الجميع في الحضور، وعن رغبتها الشديدة في العزف. ووجدت نفسها تعصر يده بشدّة معبِّرةً عن خالص مشاعر الودّ تجاهه. قال الجدُّ بحنوٍّ بعد أن لمس شعرها:

«كانت لي فتاةٌ لها مثلُ عينيك. ليباركْك اللَّهُ يا حلوتي».

غنّت بيث بسعادةٍ غامرةٍ في تلك الليلة وأشاعت جوًّا من المرح في البيت كلِّه. وفي اليوم التالي سارعت بيث إلى القصر، بعد أن غادره الجدُّ والفتى، لـتُشْبِعَ هوايتَها وتعطُّشَها للموسيقى التي كانت تعشقها. كانت تطير فوقَ أجنحة السعادة عندما جاءت حنّة لتأخذها ظهرًا إلى البيت لتناول طعام الغداء.

قالت بيث لأمِّها بعد بضعة أسابيع من تلك الزيارة الأولى المشهودة للقصر: «أمّي أريد أن أصنع للسيد لورنس زوجًا من الأخفاف. إنه رجلٌ لطيف جدًّا، وأنا أريد أن أعبِّر له عن شكري».

قالت الأمُّ: «نعم يا حبيبتي هذا ما سيسرُّه كثيرًا، وهي طريقةٌ لطيفةٌ للتعبير عن امتنانك له».

وراحت بيث تعمل بدأبٍ لإنجاز هذا العمل تساعدُها في ذلك ميغ وجو، وبعدما أتمَّت صنع الخُفَّين بعثت بهما مع رسالةٍ قصيرةٍ إلى الجدِّ لورنس وضعتها بمساعدة لوري على مكتب الجدِّ ذات صباحٍ قبل أن يصحو من نومه.

ظلّت بيث طوال يومين تترقَّب بلهفةٍ ردَّ فعل السيد العجوز على الرسالة. وأخيرًا وصلتها رسالةٌ من الجدِّ لورنس. صاحت شقيقاتُها

بفرحٍ غامرٍ وهنَّ يقُلنَ لها: «انظري. انظري». نظرت بيث مذهولةً فوجدت بيانو صغيرًا وفوقه رسالةٌ كتب عليها: «الآنسة إليزابيث مارش». قالت بيث مضطربةً وقد أذهلتها المفاجأة: «اقرئي الرسالة أنت يا جو». وأخفت وجهها لشدَّة سعادتها وخجلها في ثوب أختها.

فتحت جو الرسالة وقرأت:

الآنسة مارش العزيزة،

كان لديَّ الكثير من الأخفاف في حياتي ولكنني لم أنتعل أبدًا زوجًا يناسب قدميَّ كهذا، يا زهرتي المفضلة! هديّتك سوف تذكِّرني دومًا بالإنسانة النبيلة التي قدَّمتها لي. أحب أن أسدِّد لك ما عليّ ولذا أعلم أنك ستسمحين «للنبيل العجوز» أن يبعث إليك بشيءٍ كان في يومٍ من الأيام مِلك حفيدته الصغيرة التي فَقَدَها. مع تمنياتي القلبية وخالص شكري.

صديقك الممتنُّ وخادمك المطيعُ

جيمس لورنس

قالت جو وهي تحاول أن تهدِّئ أختها بيث التي بدا عليها الاضطراب: «هذا شرفٌ تفخرين به. لقد كان الجدُّ مولعًا بحفيدته واحتفظ بكلِّ حوائجها. فكِّري كم هي ثمينةٌ هديَّتُه حين قدَّم لكِ البيانو الذي كان لها».

قالت إيمي متأثِّرة تعقِّب على الرسالة: «فكِّري فقط في خاتمة رسالته: خادمك المطيع جيمس لورنس!»

قالت حنّةُ: «هيّا جرِّبيه يا حلوتي. أسمعينا صوت البيانو».

وما كادت جو تقترح على بيث أن تذهب لتشكر للسيد لورنس هديَّته حتى انتصبت بيث شاقَّةً طريقها إلى قصر السيد لورنس. واتَّجهتْ فورًا إلى غرفة المكتب.

كانت تريد أن تقول أشياءَ كثيرةً ولكنَّ نظرات الجدِّ الحانية أنستها كلَّ شيءٍ، ولم تجد نفسها إلا وذراعاها تعانقانه، وهي تقبِّله. وأحسَّ الجدّ وهو يُجلسها على ركبته كأنّه استعاد حفيدته.

الفصل السابع

إيمي تتعرّض للمهانة

قالت إيمي ذات يوم وهي تتابع لوري ممتطيًا جواده وهو يضربه بسوطه: «لو أنّ لديَّ قليلاً من المال الذي ينفقه على ذلك الحصان!»

واعترفت إيمي لشقيقتها بأنها بحاجة ماسَّة للمال لتفي ببعض التزاماتها. فتحت ميغ حقيبتها وأعطتها بعض المال كي تشتري ما تريد وتسدِّد ما عليها.

وفي اليوم التالي تأخَّرت إيمي في الذهاب إلى المدرسة قليلاً، حيثُ لم تستطع أن تقاوم إغراء عرض ما اشترته من ثمار الليمون. وسرعانَ ما سرى الخبر في المدرسة بين زميلاتها اللواتي تقاطرْن إليها. وثار الحسد في نفوس بعض رفيقاتها ومن بينهنَّ جيني سنو التي كانت تُعيّر إيمي من قبل. وأدَّى بها الحسد إلى أن تشكو إيمي إلى المُدَرِّس السيد ديفيز واشيةً إليهِ أنّها قد جمعت ثمار الليمون في درج مقعدها.

قال المدرِّس بغضبٍ: «إنّ ثمار الليمون مادةٌ محظورةٌ» وأعلن أنَّه

سيعاقب من يخرق النظام. وطلب المُدَرِّس إلى إيمي أن تُحضر كلَّ ما في مقعدها من ثمار وتلقي بها من النافذة.

احمرَّ وجه إيمي خجلاً وحارت في ما تفعل. التفت الأستاذ إلى الفتيات مُعنِّفًا وراح يتحدَّث بصرامة عن احترام النظام. ولم تشفع لإيمي نظرات التضرُّع، فقد أصرَّ الأستاذ على معاقبتها. أحسَّت إيمي بمهانةٍ جارحةٍ لم تشعر بمثلها في حياتها جرّاءَ تعرُّضها لعقوبةٍ جسديةٍ وأدبيةٍ أمام زميلاتها.

رمقتْ إيمي أُستاذها السيد ديفيز بنظرة لومٍ حادَّةٍ وهي تخرج صامتةً من الصفِّ بعد أن انتهت عقوبتها، وانتزعتْ أشياءها، وخرجت عازمة على ألا تعود. وعندما وصلت إلى البيت كانت على درجة كبيرةٍ من الحزن. انزعجت شقيقاتُها لما حدث ولم تملك السيدة مارش إلا أن تواسيها ببضع كلمات.

لم يلاحظ خروجَ إيمي من المدرسة إلا بعض زميلاتها، ولكنَّ السيد ديفيز كان عصبيًّا على نحو غير عاديٍّ بعد ظهر ذلك اليوم. وقبل أن تغلق المدرسة أبوابها وصلت جو حاملةً رسالةً من أمِّها إلى المدرسة وراحت تجمع حاجاتِ أختها.

قالت السيدة مارش في ذلك المساء: «أنا لا أُقرّ العقوبة الجسدية وبخاصّةٍ للبنات» وأذِنت السيدة مارش لابنتها أن تأخذ إجازة من المدرسة على أن تدرس كلَّ يوم مع شقيقتها بيث. ومع هذا فقد وبّخت السيدة مارش ابنتها لأنّها خرقت الأنظمة وإن كانت لا تقرُّ أسلوب العقوبة الذي تعرّضَتْ له.

الفصل الثامن

جو تقابل الشيطان

تأهَّبت الأختان الكبريان ميغ وجو لمغادرة المنزل للذهاب إلى المسرح بدعوةٍ من لوري لمشاهدة مسرحية «القلاع السبع». أدركت إيمي ذلك وطلبت إليهما أن يصطحباها معهما. رفضت الأختان اصطحابها لأنها لم تكن مدعوَّةً، ولأن ذهابها معهما قد يحرج لوري. توسَّلت إليهما إيمي بحرارةٍ، ولكنَّ جو رفضت بإصرارٍ، في حين قالت لها ميغ: «بوسعك أن تذهبي مع بيث وحنةَ الأسبوع المقبل».

بكت إيمي متوسِّلة ولكن دموعها ذهبت سدى. وعندما شعرت بعبث توسُّلاتها قالت لجو مغتاظة: «ستندمين على ذلك يا جو مارش!»

كانت المسرحية رائعةً بزخارفها وأجوائها وممثليها، ولكنّ ذلك لم يمنع جو من أن تشعر بغصّةٍ وهي تفكّر: ماذا تستطيع إيمي أن تفعل كي تجعلها تندم!

عندما عادت الأختان من المسرح إلى البيت كانت إيمي تقرأ في كتابٍ، وكانت ملامح وجهها تدلُّ على أنها لا تزال مكسورة الخاطر.

بعد ظهر اليوم التالي تفقَّدت جو مكتبتها فلحظت أنَّها تنقص كتابًا. سألت شقيقاتِها الثلاث اللواتي كن مجتمعاتٍ معًا عن الكتاب فَنَفَتْ ميغ وبيث معرفتَهما به، في حين سكتت إيمي. وجَّهت جو السؤال مباشرة إلى إيمي فأنكرتْ أنّها أخذته. وسرعانَ ما نشبت مشادّةٌ بين الأختين. وأمام إصرار جو التي كانت حريصة على الكتاب وعلى إتمامه قبل عودة والدها، اعترفت إيمي بأنها أحرقته تشفِّيًا من موقف جو بالأمس.

صاحت جو وهي تبكي غاضبةً وحزينةً معًا وقد أخذت تهزّ كتفي إيمي بيديها: «أنت فتاةٌ شريرةٌ.. شريرةٌ. لن أغفر لك هذا أبدًا».

اندفعت ميغ لتنقذ إيمي من بين يدي جو، فيما أخذت بيث تهدِّىء من ثورة جو.

عندما عادت السيدة مارش إلى البيت وعلمت بالقصَّة استدعت إيمي ووبَّختها على فِعلتها، وعرَّفتها بقيمة الكتاب بالنسبة لجو التي استغرقتها كتابتُه بضع سنوات. كان عملها واعدًا وجيدًا، والآن ضاع كلُّ شيءٍ، لأنّ جو لم تكن تحتفظ إلا بنسخةٍ واحدة.

بدت إيمي شديدة الحزن والأسف وقت تناول الشاي وحاولت أن تعتذر لأختها جو بحرارة، ولكنَّ الأخيرة رفضت اعتذارها بإصرار وقد

بدت علاماتُ الغضبِ على وجهها. قالتِ الأمُّ برفقٍ وهي تقبِّل ابنتها جو قبلة المساء: «لا تدعي النهار يفوت يا غاليتي وأنت غاضبة. فلتسامحْ إحداكما الأخرى وابدأا يومًا جديدًا».

في اليوم التالي ظلَّت جو مكفهرَّة الوجه غير قادرة على أن تنسى ما حصل. وعزمت على أن تذهب إلى التزلّج مع لوري لعلَّ ذلك يواسيها. حاولت إيمي أن تعلّق على قرار أختها، ولكنَّ ميغ نهرتها وقالت لها أن تذهب خلفهما وأن تنتظر حتى تستعيد جو مزاجها الطيّبَ مع لوري وتُقبِّلها.

لحقتْ إيمي بهما. واستعدَّ كلاهما للتزلُّج قبل وصول إيمي إليهما. قال لوري إنَّه سيذهب إلى المنعطف الأول ليستطلع المنحدر قبل أن يبدأ التزلّج.

صاح لوري مُحذِّرًا إيمي وهو يراها تتعثَّرُ في تزلُّجها: «لا تقتربي من حافة النهر فالمكان غير آمنٍ في المنطقة الوسطى». لم تسمع إيمي تحذيره، وسرعان ما سقطت في كومةٍ من الثلج وهي تطلق صرخةً جعلت قلب جو، التي تنبَّهت لسقطتها، يكاد يتوقفُ من الرّعب. حاولت أن تستنجد بلوري ولكنَّ صوتها ذهب هباءً. وتمالكت قواها رغم شعورها بالعجز والألم.

صاح لوري فجأةً: «أحضري قضيبًا بسرعةٍ.. هيّا بسرعة».

وتعاون الاثنان على نقل إيمي إلى المنزل، وهما يبكيان وقد تملَّكهما الرُّعب، ووضعاها قرب المدفأة وغطّياها بأغطيةٍ سميكة.

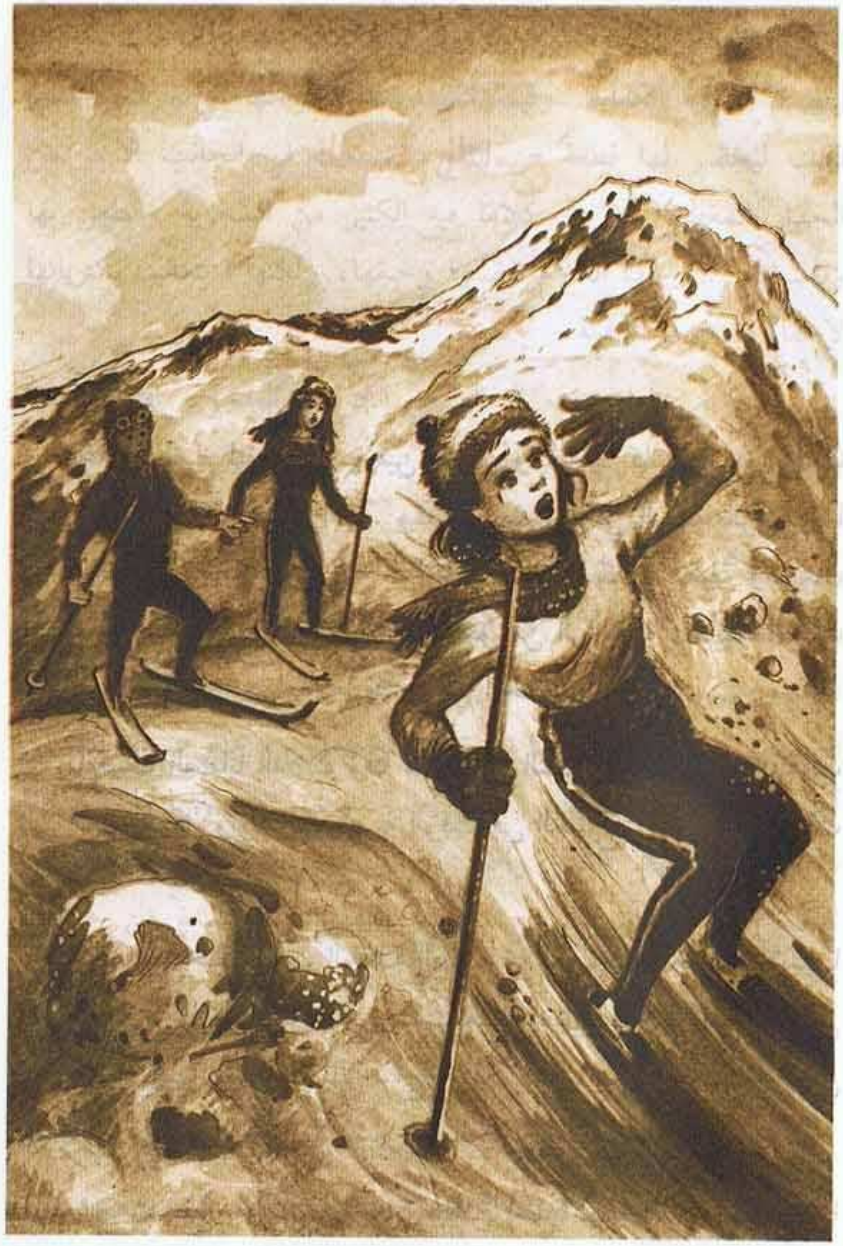

قالت جو وقد اغرورقت عيناها بدموع الأسى والندم: «أمّاه، إذا ماتت إيمي، لا سمح الله، فستكون غلطتي!» وألقت جو باللوم على طبعها السيّىءِ وقالت باكية: «بربّكِ يا أمّاه ماذا أفعل؟» أخذت الأمُّ تواسي جو الحزينة بكلماتٍ طيّبةٍ تعيد لها الطمأنينة والثقة بالنفس.

تنهدَّت إيمي وهي نائمةٌ. قالت جو نادمةً بصوتٍ مسموعٍ: «ويحي! لقد سمحت لنفسي أن يمرَّ عليّ النهار وأنا غاضبةٌ.. كم كنت شرّيرةً حين لم أغفر لها!» وانحنت فوق أختها وهي تمسح بيدها شعرها الرَّطب برقّة. فتحت إيمي عينيها وفتحت ذراعيها بابتسامةٍ اخترقت قلب جو. وسرعان ما تعانقتا بقوةٍ، وانتهى كلُّ شيءٍ بقبلة أخويّةٍ حارَّة.

الفصل التاسع

مَتاعُ الغرور

غادرت ميغ لتقضي أسبوعين للتَّرفيهِ والمُتْعة. كانت أسرة موفات تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية. وقد شعرت ميغ في البداية بالرَّهبة إزاء روعة المنزل وأناقة قاطنيه. ولكنَّ عائلة موفات كانت لطيفةً وسرعانَ ما تُشعر ضيفَها بالراحة. وفي هذا الجوِّ من الراحةِ والطمأنينةِ أخذت ميغ تقلِّد طباع مَن حولها وطريقتهم في الحديث.

أمضت الصبايا الثلاث وقتًا ممتعًا في التسوُّق والمشي، والذهاب إلى المسرح والأوبرا، أو تمضيةِ الوقت في المسرح والمزاح في البيت مساء.

وعندما حان وقت الحفلة الصغيرة، شعرت ميغ أنّ ملابسها المتواضعة لا تليق بالمناسبة. أحسَّت ميغ بمعنى نظرات الفتيات سالي وآني وبيل إليها وشعرت بالإحراج. ولكنَّ الفتيات كنَّ دمثاتٍ ورُحْن يساعدنها في زينتها حتى لا يُشعرنها بالخجلِ والإحراج.

شعرت ميغ بالأسى لفقرها. ولكنَّ أساها سرعان ما تبدَّد عندما

وصلتها باقة من الأزهار هديّةً من لوري. وشعرت بسعادةٍ أكبر وهي توزِّع الورود والأزهار على رفيقاتها. استمتعت ميغ بليلتها تلك بعد أن رقصت ما فيه الكفاية. وفيما كانت تنتظر شريكها في الرقص الذي ذهب ليُحضر لها قطعةً من الثلج، سمعت في الجانب الآخر من الجدار المغطّى بالأزهار كلامًا فيه الكثير من السُّخرية والطعن بها وبأسرتها. أثار هذا الكلام غضبها وحنقها، ولكنها استعانت بكبريائها لإخفاء مشاعرها الدفينة.

وفيما هي على هذه الحال من الكرب والخجل، اقتربت منها الآنسة بيل وقالت لها إنها أرسلت دعوةً إلى صديقها السيد لورنس لحضور حفلة يوم الخميس. ولكنَّ ميغ أفهمتها أن لوري ليس صديقها. وهنا تدخلت سالي محاولةً تغيير مجرى الحديث وسألتها عما ستلبس في الحفلة. وشعرت ميغ مرة أخرى بالإحراج، ولكنّ بيل ألحّت عليها أن تقبل بارتداء ثوب من ثيابها يليق بها. وفي ليلة الخميس كرّست بيل نفسها مع خادمتها لجعل ميغ تبدو سيدةً رائعةً في أحسن حُلَّةٍ، وأبهى زينةٍ، وأجمل حلية. وعندما أوصلتها بيل إلى قمّة ما تريد قالت لها: «تعالي وأظهري نفسك». وراحت ميغ تخطر بثوبها الجميل وزينتها البهيّة وهي تستمتع بالنظرات الحاسدة من حولها. قالت لها سالي: «إنك جميلةٌ جدًّا وتبدين كآنسة فرنسية. ولكن حاذري أن تتعثَّري». نزلت مارغريت السُّلَّم بتؤدة وانضمَّت إلى حيث تجمَّع عددٌ من الضيوف وأفراد عائلة موفات. أصابت الدهشة كثيراتٍ ممَّن لم يُعِرنها انتباهًا من قبل. وكثيرٌ من السادة الذين كانوا لا يُعيرونَها اهتمامًا باتوا يطلبون التعرّف بها. وفيما كانت ميغ تلوِّح

بمروحتها وتضحك، إذ بها وجهًا لوجه أمام لوري. كان يحدّق فيها بدهشة ظاهرة وبعدم رضى. انحنى لها وابتسم ولكنَّ شيئًا ما في عينيه جعلها تحمرُّ خجلاً وتتمنى لو أنها كانت ترتدي ثوبها القديم. قالت له:

- «أنا سعيدةٌ بقدومك. كنت أخشى ألاّ تأتي».

- «جو أرادتْ أن أحضر وأخبرها كيف كان مظهرك».

- «وماذا ستقول لها؟» تساءلت ميغ بشيءٍ من الضِّيق.

- «سأقول لها إني لم أعرفك لأنك تبدين أكبر من سنِّك ولم تعودي أنت».

- «يا للسُّخف! الفتيات ألبسنني كي أمرح. ألا تحبُّني كذلك؟»

أجابها لوري بطريقةٍ فظّةٍ: «لا».

انزعجت ميغ من طريقة تعبيره التي خلت من أية علامة من علامات أدبه المعتاد. قالت مغتاظةً وهي تغادر مكانها: «أنت أوقح فتى رأيتُه». ومشت إلى النافذة كي تستشعر شيئًا من البرودة. وسرعان ما اقترب منها لوري شاعرًا بالندم وقال لها:

- «أرجو أن تغفري لي وقاحتي وأن تقبلي بالرّقص معي. تعالي». ومدَّ إليها يده. ابتسمت ميغ ومشيا معًا بعيدًا. ورجته ميغ ألاّ يخبر أحدًا من أهلها عن ثوبها في تلك الليلة وقالت إنَّها ستخبرهنّ بنفسها.

وفيما هما يتجاذبان أطراف الحديث بثقةٍ ومودّةٍ اقترب منهما تيد

موفات ليطلب يد ميغ للرَّقص، فتركهما لوري ولم يتدخّل إلا عندما أسرفت ميغ في تناول المشروباتِ الروحيَّة.

شعرت ميغ بالمرض طوال اليوم التالي. وعادت يوم السبت إلى بيتها وهي تشعر بالراحة والسكينة. وراحت تقصُّ مغامراتها مبتهجةً وتروي عن الأوقات السعيدة التي أمضتها. ولكن ما إنْ مضت شقيقتاها الصُّغريان إلى النوم حتى ذهبت إلى حضن أمِّها لتعترف بكلِّ الأشياء الشنيعة التي اقترفتها لدى أسرة موفات. وراحت تروي لها كلَّ ما حدث بكلِّ التفاصيل.

قالت الأمُّ تلوم نفسها: «لم يكن من الحكمة أن أسمح لك بالذهاب إلى أناسٍ لا أعرف عنهم إلاّ القليل، أناسٍ يفتقدون التهذيب، ولديهم الكثير من الأفكار المبتذلة».

أطرقت ميغ تفكِّر بما فعلتْ وبما تسمعُ ثم سألت أمَّها: «أحقًّا لديك خِطَطٌ كما قالت السيدة موفات؟» قالت الأمُّ: «نعم يا عزيزتي. لديّ الكثير من الخطط، وكلُّ الأمّهات لديهنَّ خططٌ. ولكنَّ خططي تختلف عما تفكِّر فيه السيدة موفات. أريد لِبناتي أن يكُنَّ جميلاتٍ وطيباتٍ، وأن يكنَّ موضع إعجابٍ وحبٍّ واحترامٍ وأن يعشن حياةً سعيدةً وأن يتزوَّجن زيجاتٍ عاقلةً. أنا ووالدكنَّ على ثقة بأنَّ بناتنا، سواءٌ كنَّ عازباتٍ أو متزوجاتٍ، سيكنّ فخرًا لنا وراحةً لحياتنا».

صاحت ميغ وجو معًا: «سنكون كذلك يا أمّاه، نقسمُ لكِ أنّنا سنكون كذلك».

الفصل العاشر

نادي بيكويك

حلَّ الربيع وحلّت معه مباهجُ جديدةٌ. ومع تفتُّح الأزهار كان لا بدّ من العناية بالحديقة الصغيرة. وراحت الشقيقات الأربع يولين اهتمامهنَّ للعناية بها، كلُّ واحدة تُعنى بما تحبُّ من الورود والأزهار. وهكذا شغلن أوقات فراغهنَّ بهذه الهواية الممتعة بالإضافة إلى هواية التجديف في النهر.

أمّا في الأيام الماطرة فقد كان لديهنّ تسلياتٌ أخرى، إذ لمّا كنَّ معجباتٍ بالروائي الإنكليزي تشارلز ديكنز وبروايتِهِ المرحة «السيد بيكويك» فقد شكّلن جمعيةً أطلقن عليها اسم «نادي بيكويك». وانتحلتْ كلُّ واحدةٍ منهنَّ شخصيةً من شخصيات هذه الرواية ورُحْن يمثّلن أدوارَها. وكان اندماجهنَّ في تمثيل هذه الأدوار، وما يطرأ عليها من مفارقاتٍ، يجلب لهنَّ الكثير من المرح والمتعة والسعادة.

الفصل الحادي عشر

اختبارات

كانت فرحة ميغ بالغةً لسفر عائلة كنغ إلى الشاطىء للاصطياف فترة ثلاثة أشهرٍ لأنَّهُ سيمنحها عطلةً طويلةً للراحة. أما جو فكانت متعبة وتريد أن تقضي يَومها في السرير كي تنال قسطها من الراحة، بالإضافة إلى ممارسة متعة القراءة. وفيما رغبت الصغيرتان إيمي وبيث بالانصراف عن دروسهما نصحتهما الأمُّ بالقيام بما يترتّب عليهما من اختبار.

استيقظت ميغ في الصباح وجلست في الركن الذي تجلس فيه والدتها وراحت تحلم بملابس الصيف التي ستشتريها من راتبها. أما جو فقد أمضت صباحها مع لوري عند النهر فيما انصرفت بعد الظهر إلى القراءة. وانصرفت بيث إلى موسيقاها، فيما انصرفت إيمي إلى الرسم وهي تتخيَّل كيف ستصبح رسامة مشهورةً ذات يوم.

شعرت الفتيات بأنَّ الوقت يمضي بطيئًا ومملاً. ولكن لم تشأ أيُّ واحدة منهنَّ أن تعترف بوطأة الاختبار الذي كان عليهنّ القيامُ به. وعندما صرفت الأمُّ حنّة في إجازةٍ، شعرت الفتيات بهمٍّ أكبر وتذكّرن

قول حنّة «إن تدبير المنزل ليس بنزهة». وعندما قررت الأمُّ أن تختلي بغرفتها وتترك لهنَّ تدبير شؤون المنزل بما في ذلك تحضير طعام الإفطار والغداء، اكتشفن مدى قصر باعهنَّ وضآلة خبرتهنَّ في هذا المجال، ومقدار العبء الكبير الذي تقوم به حنّة.

كان على جو أن تُحضِّر طعام الغداء لضيوفها وأن تتسوَّق كلَّ شيء وتعدَّ كلَّ شيء. وفي المطبخ اكتشفت أنّ الإرادة وحدها لا تكفي. لقد ارتكبت جو عدّة أخطاء في طريقة تحضير الطعام وفي تقدير المعايير المناسبة. وجاء الغداء الذي حضَّرته جو مهزلة. وشعرت جو بالخجل وهي ترى ضيوفها، ولوري بخاصّةٍ، ينصرفون عن صنفٍ بعد آخر. وضحك لوري بصوتٍ عالٍ كي يبدّد جوَّ الوجوم والصَّمت الذي ران على الجميع، وحتى لا يتحوَّل الغداء إلى مأساةٍ، وقد كاد. احتقن وجه جو وكادتْ تبكي وهي تستطلع وجوه مَن حولها بعدما ذاقوا ما صنعت يداها، ولكنّها بدلاً من أن تبكي، انقلبت إلى الضحك حيثُ نظرت إلى الجانب الكوميديِّ من المشهد، وتبعها الآخرون أيضًا بمَنْ فيهم السيدة كروكر التي كانت تبدي الكثير من علامات الامتعاض وهي تجرِّب صنوف الطعام. وهكذا انتهى الغداء التعيس نهايةً سعيدةً.

تَنَفَّسَ كلٌّ من جو وميغ الصعداء بعد عناء يومٍ طويلٍ، إثر ذهاب الضُّيوف. وجلست الفتاتان ومعهنَّ إيمي وقد أخذ منهنَّ التعب كلَّ مأخذ. وانضمَّت إليهنَّ أمُّهنَّ وقالت: «هل أنتنَّ راضياتٌ يا بناتي عن الاختبار، أم أنكُنَّ تفضِّلن أسبوعًا آخر؟!»

ردّت الفتيات بصوت واحد تقريبًا: «لا . . لا نريد ذلك».

قالت الأمُّ: «من الأفضل إذن أن تقمن بالقليل من الواجبات، وأن تقدِّمن شيئًا للآخرين أليس كذلك؟»

وتابعت الأمُّ تدعوهنَّ إلى تَعَلُّم الطهو لأنه أمرٌ لا يمكن للمرأة أن تستغنيَ عنه.

قالت ميغ وقد أدركت حيلة أمِّها: «أمّي، هل تركتِنا وابتعدتِ كي تَرَي كيف نتصرّفُ من دونك؟»

قالت الأمُّ: «نعم، أردت أن تعرفْن أنّ راحة الجميع تعتمد على ما تقومُ به كلُّ واحدةٍ منكنَّ بإخلاص. أليس من الأفضل أن تساعد كلُّ واحدةٍ الأخرى بحيث يكون المنزل مريحًا ومُبهجًا للجميع؟»

صاحت البنات: «سنفعل ذلك يا أمي، سنفعل».

وأدركت السيدة مارش عندئذٍ أن اختبارها لبناتها قد نجح.

الفصل الثاني عشر

مُخيَّم لورنس

عادت بيث من مكتب البريد ذات يوم من أيام شهر تموز وهي تحمل رسائل وهدايا لميغ وجو. وكان نصيب جو من الرسائل رسالتين إحداهما رسالةٌ رقيقةٌ من أمِّها تعبِّر فيها عن ارتياحها لِحُسنِ تصرُّف جو التي باتت تحسن التحكُّم بطبعها وتدعو لها بالنجاح والتوفيق. والأخرى من لوري.

وكانت رسالة لوري تقول إنّه سُيخيّمُ في منطقة تدعى «لونغ ميدو» مع عددٍ من الأصدقاء حيث سينتقلون إليها بالقوارب، ويتغدّون ويلعبون الكروكيت. وهو يدعوهنَّ بإلحاح إلى الانضمام إليهم حيث البهجةُ والصحبة الجميلة.

طارت جو فرحًا وهُرعت تخبر ميغ وأمَّها وتطلب إذنها للانضمام إلى لوري وصَحْبه من فتيانٍ وفتياتٍ وصِبْية.

ما إن اخترقت أشعة الشمس غرف نوم الفتيات في صباح اليوم التالي واعدةً بيومٍ مشرقٍ، حتى كانت جو أولى الصاحيات من نومهنّ

لتوقظ أخواتها. وسرعانَ ما ارتدينَ الملابس الصيفية الخفيفة وارتسمتْ على وجوههنّ السعادة والبهجة.

هُرع لوري للقائهنّ وتعريفهنَّ بأصدقائه. سُرَّت ميغ بلقاء الآنسة كيت بثيابها البسيطة وأحسَّت بالزَّهو لكلمات تيد الذي أكدَّ لها أنَّه جاء خصِّيصًا كي يراها. واختارت بيث الفتى الأعرج كي تصادقه في حين استلطفت إيمي الفتى غريس وسرعان ما تصاحبا.

وكانت الخيام والأطعمةُ مُعدَّةً مسبقًا وسرعان ما ابتدأت الحفلة. وانطلق القاربان معًا: لوري وجو في قاربٍ، والسيد بروك وتيد يجدِّفان في القارب الآخر. وفي القارب الثاني جلست ميغ وجهًا لوجه مع السيد بروك الصامت الوسيم ذي الصوت العذب الذي أحبَّت ميغ خصاله، وإلى جانب تيد الذي يحاول أن يشيع جوًّا من البهجة. أما سالي غاردنر فكانت تجاذب فُرد أطراف الحديث وقد شغلتها فكرة المحافظة على ثوبها الأبيض نظيفًا.

لم تكن المسافة إلى لونغ ميدو بعيدة. وكانت الخيمة قد نُصبت لتوِّها وسط حقلٍ أخضرَ انتصبت في وسطه ثلاثٌ من أشجار السنديان الوارفة وإلى جانبها شريطٌ من العشب يصلح للعبة الكروكيت.

قال المضيف وهم يترجَّلون من القوارب: «أهلاً بكم في مخيَّم لورنس». وراح يوزِّع الرُّتب والأمكنة على الجميع مقترحًا القيام بلعبة الكروكيت قبل الشروع بالغداء.

وراحوا يلعبون بهمَّة ونشاط ويتبارون ويتنافسون ويتقاذفون الكرة.

واشتدَّت المنافسة بين الأميركيين والبريطانيين حتى كادت تتحول إلى مشادّة لولا تمالُكُ جو أعصابها. وهذا ما راق لأختها ميغ التي هنَّأتها على حسن تصرُّفها.

صاح السيد بروك وهو ينظر إلى ساعته: «حان وقت الغداء!»

وراح يوزِّع المهمّات على الأفراد. ونهضت جو لصنع القهوة، في حين راح كلٌّ من الآخرين يقوم بعملٍ ما. وانتصبت مائدةٌ رائعةٌ حافلةٌ بأصناف الطعام الطازجة والشهيّة.

قالت جو مازحةً تخاطب لوري: «كيف تجرؤُ على تذكيري بالغداء التعيس الذي دعوتك إليه في حين أنّ غداءك حافلٌ بكلِّ ما هو ممتع؟» وضحكا معًا.

سأل لوري: «ماذا نفعل بعد الغداء؟»

كانت الآنسة كيت تعرف ألعابًا جديدةً كثيرةً، لذا تحوَّل الجميع إلى ركن الاستقبال كي يلعبوا لعبة «الكلام الفارغ». وراحت كيت تشرح قواعد اللعبة: «يبدأ أحدكم بِسردِ قصةٍ. يقول أيَّ كلام مهْما كانَ، ويقصُّ ما يشاء، ولكن عليه أن يتوقف عند نقطةٍ مثيرةٍ، وعندها يأتي دور غيره ويتابع على المنوال نفسه.. وهكذا». وأضافت بلهجةٍ آمرةٍ: «ابدأ أنت يا سيّد بروك».

أطاع بروك وشرع يحكي قصةً.

ضحك الجميع من هذه القصّة بعد أن أدّوا أدوارهم. واقترحت سالي لعبةً جديدةً اسمُها «الحقيقة». وشرحتْ سالي هذه اللعبة التي

ينبغي على اللاعب فيها أن يجيب بصراحةٍ عن أية أسئلةٍ يطرحها الآخرون. إنها ممتعةٌ جدًّا.

وقالت جو: «دعونا نجرِّبها».

وقع الخيار على لوري بعد إجراء السَّحْب.

وتقاطرت الأسئلة الطريفة والمحرجة على لوري الذي أجاب عنها بواقعية، وضحك الجميع. وجاء بعده دور فِرِدْ، الذي بادرته جو بسؤالٍ فيه تَشَفٍّ: «ألم تغشَّ في لعبة الكروكيت؟» واعترف فِرِدْ بذلك، وهذا ما أثلج صدر جو التي كانت مستاءة من تصرُّفاته أثناء اللعب. قالت جو: «لعبة «الحقيقة» لعبةٌ سخيفةٌ.. دعونا نلعب «لعبة «المؤلفين» التي تشحذ أذهاننا».

وفي حين انخرط معظمهم في اللعبة الجديدة انزوت ميغ مع السيد بروك في حديث رقيقٍ عن الغناء والأدب. وراحت تقرأ في كتابٍ لشيلر أعطاها إيّاه. وبعدما أثنى السيد بروك على قراءتها امتدَّ بهما حديثٌ شيِّقٌ ووجدانيٌّ أثار عاطفته.

أمضى الجميعُ ذلك النّهارَ بسعادةٍ وسُرور.

وعند الغروب انفضّ كلُّ شيءٍ وعادت المجموعة كلُّها بالقوارب تجذِّف وتغنّي بمرحٍ وسعادة.

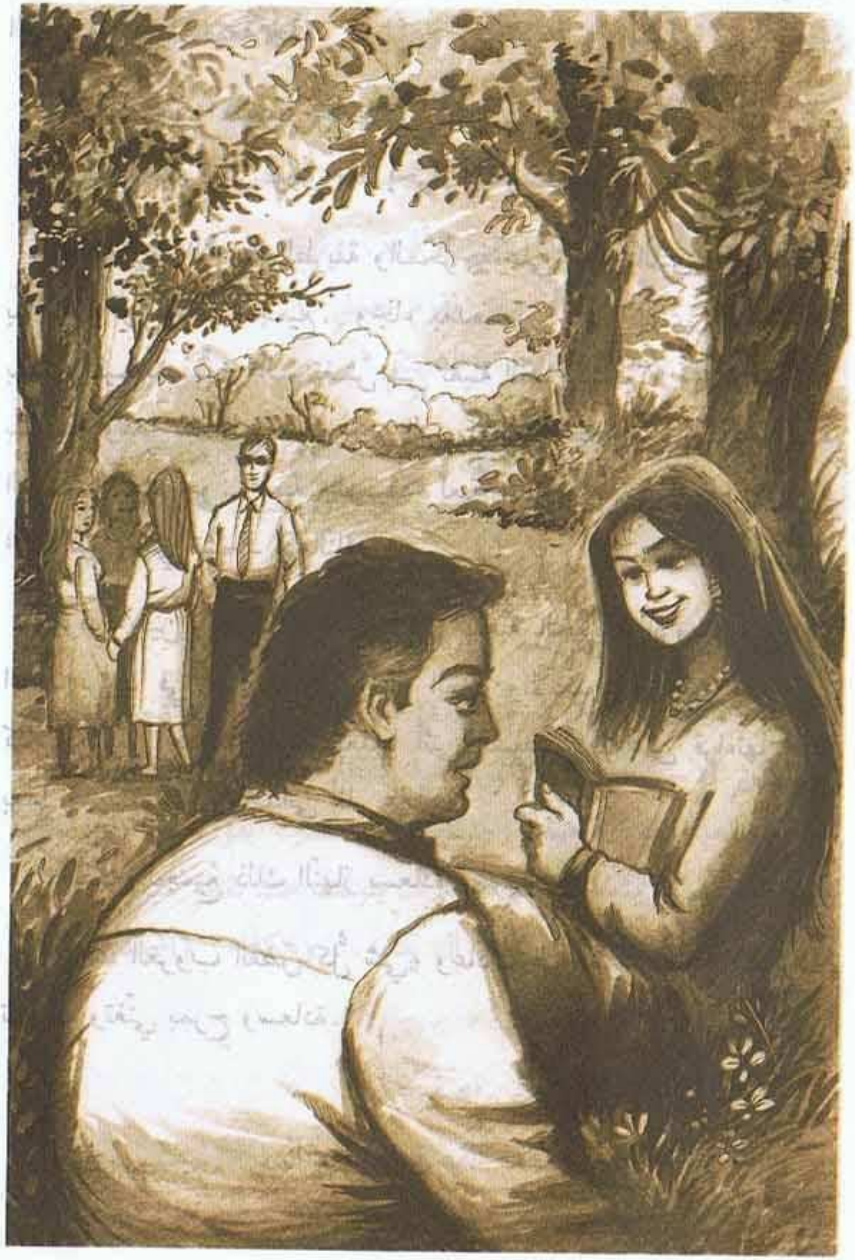

الفصل الثالث عشر

أسرار

حلَّ الخريف، ومع نهارات الخريف القصيرة كانت جو تعمل بدأبٍ كي تنجز الأوراق التي بين يديها. وعندما أنجزت هذا العمل ذيَّلتهُ بحاشية تقول: «قدَّمت هنا أفضل ما أستطيع! وإذا كان هذا لا يناسب، فعليَّ أن أنتظر حتى أستطيع القيام بما هو أفضل».

حملت جو أوراقها وخرجت إلى الطريق، وركبت حافلةً عامّةً واتجهت نحوَ المدينة، وعندما نزلت اتجهت بخطىً مسرعةٍ إلى عنوانٍ بعينه في شارعٍ مزدحمٍ. ترددت جو كثيرًا في الدخول. ولم يَطُلْ بها المقام في ذلك المكان إذ سرعان ما نزلت. وهذا ما أثار دهشة رجلٍ كان يراقبها ويتساءل بفضولٍ عن سرِّ مجيئها بمفردها.

وتشاء الصدف أن تلتقي لوري الذي بدا مندهشًا لرؤيتها فسألها عمّا يُزْعجها! مشى لوري إلى جانبها صامتًا لبرهةٍ ثم قال لها إنه يودُّ أن يتمشى معها قليلاً ويخبرها بأمرٍ هامّ.

أبدت جو رغبتها في سماع ما يودُّ أن يقول. عندئذٍ قال لها

لوري: «حسنًا، إنّه سرٌّ، وإذا كنت سأطلعك عليه فلا بد مِن أن تُطلعيني على أسرارك». وعندما نفت جو أن يكون لديها أسرارٌ قال لها لوري: «أنت لا تستطيعين أن تخفي شيئًا. هيّا أفصحي وإلاّ لن أخبرك بشيء».

واعترفت جو بأنّها سلّمت قصّتين إلى صحافِيٍّ يعمل في جريدةٍ ليُبْدِيَ رأيه فيهما. صاح لوري استحسانًا وألقى بقُبَّعَتِهِ عاليًا وهو يقول: «الله! ستكون الآنسة مارش مؤلِّفةً أميركيّةً مشهورة!»

وبعد أن سمعت جو كلمات الثناء والتشجيع من لوري قالت: «والآن ما هو سرُّك أنت؟» قال لها لوري: «أعرف أين يوجد قفّاز ميغ الضائع». ومال نحوها وأسرَّ همسًا بكلماتٍ قليلةٍ. بدت جو مستاءة لما سمعت، خلافًا لِما اعتقد لوري.

كانت أبعاد ما سمعَتْه جو من لوري تُقلقها. وسرعان ما انعكس ذلك على سلوكها المُستغرب في المنزل. كانت تندفع نحو الباب عندما يقرع ساعي البريد جرس المنزل، وتعامل السيِّد بروك بجفاءٍ عندما تقابله، وتنظر إلى ميغ بوجه مُثقلٍ بالهموم، وتقفز إليها من وقت إلى آخر لتهزَّها ثم تقبِّلها بطريقةٍ غريبة.

دلفتْ جو إلى الغرفة فجأةً بعد أن وقفت في الحديقة مع لوري، يتضاحكان ويمرحان. جلست من فورها على الأريكة وراحت تقرأ بشغف. سألتها ميغ التي كانت تحوك الثياب: «هل هناك ما يثير اهتمامك؟»

قالت جو وهي تخفي عنوان الجريدة: «لا شيء. إنها مجرَّد قصةٍ عنوانها: الرسامون المتنافسون».

طلبت ميغ من جو أن تقرأ هذه القصّة. وراحت تقرأ بسرعةٍ وشقيقاتها الثلاث يُتابعنها باهتمام. فالقصّة كانت رومانسية ومُحزنةً بعض الشيء ويموت معظم أبطالها في النهاية. وبعد أن أنهت جو القراءة راحت شقيقاتها يُعلِّقن عليها. وفجأة سألت بيث التي التقطت لمحات وجه جو: «مَن كتب هذه القصّة؟»

وهنا نهضت جو وهي تظهر الرَّزانة والوقار: «إنها أختكنّ».

صاحت ميغ وهي تلقي ما في يدها: «أنت!»

وتعالت صيحات الإعجاب من الجميع وغمرهُنَّ فرحٌ كبيرٌ. لم تشأ ميغ أن تصدِّق إلا بعد أن شاهدت اسم أختها «جوزفين مارش» مطبوعًا في الجريدة. وقالت حنّة التي جاءت تستطلع النبأ: «كم ستفخر بك السيدة مارش عندما تعلم!»

وكشفت جو النقاب عن قصّتها الثانية، وكيف أعجب بهما المسؤول في الجريدة. وأعلنت جو عن رغبتها في الكتابة من جديدٍ، وأن قصّتها ستكون مأجورةً هذه المرة. وأعربت جو عن سعادتها بذلك لأنها مع الوقت ستساعد نفسها وتساعد أخواتها.

إنها الخطوة الأولى نحو نهايةٍ سعيدة.

الفصل الرابع عشر

برقية

أعربت مارغريت عن استيائها من شهر تشرين الثاني وهي تنظر من النافذة إلى الحديقة التي قرصها الصقيع ذات يومٍ قاتمٍ بعد الظّهر.

وقالت بيث الجالسة عند النافذة الأخرى: «ثَمَّةَ حدثان مبهجان على وشك الوقوع. فمارمي قادمة في الطريق، ولوري يطوف في الحديقة وكأنّه يريد أن يزفَّ إليها شيئًا».

ودخل كلاهما المنزل. وسألت السّيدة مارش سؤالها المعتاد: «هل وصلت أية رسالةٍ من والدكنَّ يا بنات؟»

ورنّ الجرس فجأةً بحدّة ودخلت حنّة تُعلن وصول برقية. وعند سماع ذلك فضّت السيدة مارش البرقية، وقرأت السطرين الواردين فيها وارتمت بعدها في شبه غيبوبةٍ.

قرأت جو البرقية بصوت مرتعش:

السيدة مارش

زوجك مريضٌ جدًّا. احضري حالاً.

س. هيل

مستشفى بلانك، واشنطن

استفاقت السيدة مارش ومدَّت ذراعيها إلى بناتها قائلةً بنبرة لن يَنسيْنها أبدًا: «سأذهب في الحال ولكنني ربما أصل متأخرةً كثيرًا. بناتي الحبيبات ساعدْنَني على تحمُّل الموقف!» وساد النحيب جوَّ المكان تتخلّله كلمات مواساةٍ متقطعةٍ وهمسات تخنقها العبرات.

لم تشأ الأمُّ أن تُضيع الوقت في البكاء، وسارعتْ إلى وضع غطاء رأسها، فيما سارعت حنّة إلى تحضير أمتعتها. وطلبت الأمُّ من لوري أن يرسل برقية في الحال يخبرهم فيها أنّها قادمة في قطار الصباح الباكر. كما طلبتْ من جو أن تخبر السيدة كنغ أنها لا تستطيع الحضور غدًا. وطلبت من بيث أن تطلب من السيد لورنس زجاجتين من الشّراب تقدِّمهما هديةً لزوجها. وسألتْ إيمي أن تنزل لتطلب من حنة تحضير صندوق الثياب الأسود، فيما طلبت من ميغ أن تساعدها في تحضير أمتعتها.

انطلق كلٌّ واحدٍ في اتجاه. وسرعانَ ما ظهر السيد لورنس مع بيث حاملاً معه كلَّ ما يمكن أن يريح المريض، ووعودًا بحماية الفتيات ورعايتهنَّ طوال فترة غيابها. وعرض الرَّجل مرافقتها ولكنَّ السيدة مارش ما كانت لتقبل أن يتكبَّد النبيل العجوز مشقة السفر. وفجأةً ظهر السيد بروك أمام ميغ عند المدخل، وأبدى أسفه الشديد لها وعرض أن يرافق والدتها إلى واشنطن. شعرتْ ميغ بامتنانٍ عظيمٍ، وأبدت ارتياحها لمرافقة أمِّها في الطريق.

عاد لوري من بيت العمة مارش يحمل المبلغ المطلوب مع رسالة قصيرةٍ تقول فيها إنها كانت تنتقد دومًا التحاق أخيها بالجيش وتتوجّس شرًا من وراء ذلك. ولكن السيدة مارش لم تكترث للرّسالة وألقتْ بها في النار، وتابعتْ استعداداتِها.

وفيما كان الجميع منهمكين في أعْمالهم، كانت جو لا تزال غائبةً عن المنزل وهو ما أثار قلقهم جميعًا. وخرج لوري ليبحث عنها، فإذا بها تعود وقد ارتسمت على وجهها تعبيراتٌ جعلت الجميع في حيرة. وقدَّمتْ جو لوالدتها رزمة من النقود قائلةً: «هذه مساهمة منّي نحو والدي كي يكون مرتاحًا ويعود إلينا».

سألتِ الأم ابنتها بقلق عن مصدر النقود، فطمأنتْها جو وقالت إنها لم تحصل على النقود إلا من شيء يخصُّها.. هو شعرها الطويل، الذي أصبح قصيرًا بعد القصّ. وحاولت جو وسط الدهشة التي رانت على الجميع أن تظهر اللامبالاة. ولكنَّ حقيقة مشاعرها لم تخفَ على أحد. وعندما ألحَّت عليها إيمي بالسؤال عن سبب فعلتها قالت جو: «كنت توّاقة إلى أن أُقدِّم شيئًا لوالدي... أمّي تقترض الكثير، ومبغ قدَّمت راتبها عن ثلاثة أشهر». وراحت تقصُّ عليهنَّ بالتفصيل كيف باعت شعرها الطويل للحلاّق، وكيف ساومها على ثمنه، وكم أسفتْ على شعرها الغالي. وتوجَّهتْ بخطابها إلى أمّها قائلة: «لقد احتفظتُ لك بخصلةٍ يا أمّي الحبيبة».

أخذت الأمُّ الخصلة وشكرتِ ابنتها وفي حلقها غصّةٌ. وساد جوٌّ من الوجوم. وانصرفت الفتيات إلى النوم ولكنَّ جو لم تنم. كانت

راقدةً في الفراش بلا حراك. كانت حزينةً على شعرها، ولكن لم تكن نادمة. أخفتْ أحزانها وقالت لأختها ميغ التي حاولت أن تواسيها: اعتبري الموضوع منتهيًا».

وفيما هنَّ نائماتٌ عند منتصف الليل كانت أمُّهنَّ تطوف بين أسرّتهنَّ، تغطّي هذه أو تعدِّل مخدَّة تلك، وترنو إليهنَّ بحنانٍ داعيةً لهنَّ بالسكينة.

وعند الفجر استيقظت الشقيقات الأربع ورُحن يتهيَّأن لوداعٍ مفعمٍ بالحبور والأمل.

بدا كلُّ شيء غريبًا عندما نزلن إلى الأسفل... طعام الإفطار.. وجه حنة.. كلُّ شيءٍ بدا غريبًا. أما السيدة مارش فقد بدا عليها الشحوب وآثار القلق والأرق. وران الصمت على الجميع.

بيد أنَّ قرقعة عربة مقتربةٍ جعلتْهُنَّ يتنبّهن ويُصغين. إنها لحظة الفراق الصعبة. ولكنَّ البنات تجالدن بصبر، وقبَّلن أمَّهنَّ بهدوءٍ وحاولْن أن يلوِّحن لها بمرح حين همَّت بالرحيل. كان لوري وجدُّه في وداعها. أما السيد بروك فقد أظهر قَدْرًا كبيرًا من الشهامة والرقّة. قالت الأمُّ مودِّعةً: «الوداع يا أحبائي! ليباركنا الله ويحفظنا جميعًا». وقبَّلتِ الجميع وهُرعتْ إلى العربة.

ما كادت الأمُّ تبتعد قليلاً حتى قالت جو: «أُحسُّ بشيءٍ أشبه بالزلزال». وعقَّبتْ ميغ: «يبدو لي أنّ نصف البيت قد رحل».

صاحتْ حنة: «والآن هيّا إلى شرب القهوة يا حَبيباتي.. أبقاكنَّ

الله ذخرًا للعائلة». قالت جو وقد استردَّت روحها المعنوية: «ليكن شعارنا: الأمل والعمل».

كانت الأنباء الواردة من والدهنَّ الذي انتعشت روحه بمجيء زوجته تدعو إلى الاطْمِئنان. وكان السيد بروك يوافيهنَّ بنشرةٍ يوميةٍ عن صحَّته. وكانت ميغ بوصفها أكبر أعضاء العائلة هي التي تقرأ الرسائل، فيما راحت الأخوات يتبارين في كتابة الرسائل إلى والديهنّ.

الفصل الخامس عشر

أيامٌ سود

عادت الأمور تنتظم في المنزل بعد أن اطمأنت الفتيات إلى صحة والدهنّ. واقترحت بيث أن تذهب ميغ إلى أسرة هملز التي أوصت والدتهنَّ بها. تحاملتْ بيث على نفسها، رغم ما بها من صداعٍ بعدما تقاعستْ أخواتها، وشقَّت طريقها وسط الريح القارسة بعد أن ملأت سلّتها بأشياء حملتها لصغار تلك الأسرة الفقيرة. وعادت بيث إلى المنزل في ساعة متأخرةٍ في حالةٍ يرثى لها. سألتها جو عمّا بها، فراحت تذرف دموعها وتقول: «لقد مات طفل السيدة هملز في حضني قبل أن تعود إلى البيت».

قالت جو وهي تأخذ شقيقتها بذراعيها: «يا لأختي المسكينة! كم كان الأمر مرعبًا لك! كان عليَّ أن أذهب. لا تَبْكي يا عزيزتي. كيف تصرَّفْتِ؟»

ـ «بَقيتُ حتى جاءت السيدة هملز مع الطبيب. قال الطبيب: إنّه ميت. إنها الحمّى القرمزيّة. كنتُ حزينةً جدًّا وبقيتُ معهم إلى أن

طلبوا منّي الذّهابَ إلى البيت فورًا وأن آخذ الترياق وإلا أُصِبْتُ بالحمّى».

قالت جو برعب بعد أن لامت نفسها على تقاعسها: «ماذا نفعل الآن؟»

ولجأتا إلى حنّة التي اقترحت استدعاء الطبيب وبقاء بيث في المنزل على أن تبقى معها إحدى شقيقاتها لتعنى بها. كما اقترحت أن تذهب إيمي بدلاً من بيث إلى منزل العمّة مارش.

احتجّت إيمي باكيةً قائلةً إنها كانت تفضّل الحمّى على الذهاب إلى منزل السيدة مارش. ولكنّ لوري استطاع أن يقنعها برقّة واعدًا إياها بأن يأتي لاصطحابها يوميًا. فرضختْ إيمي، وغادرتْ ساكنةً مع لوري وجو.

كان الطبيب قد شخّص مرض بيث بأنه أعراض حمّى. وتولّت حنة القيام بأعباء العناية وكذلك كرّست جو نفسها ليل نهار لبيث التي كانت تتحمّل الألم من دون شكوى، إلى أن جاء وقتٌ لم تعد فيه بيث تستطيع تمييز وجوه مَن حولها وراحت تطلب أمّها بتوسُّل. وفيما كانت ميغ تفكّر بإخبار والدتها بالأمر جاءت أنباءٌ تزيد أحزانهنّ فقد علمْنَ أن والدهنّ أصيب بانتكاسةٍ تمنعه لفترةٍ طويلةٍ من العودة إلى البيت.

كانت الأيام حالكةً شديدة الوطأة على قلوب الفتيات، فيما شبح الموت يُخيّم على المنزل الذي كان عامرًا بالسعادة ذات يوم. كان الجميع يفتقدون بيث ويسألون عنها ويتمنّون لها الشفاء العاجل.

كان يوم الأول من كانون الثاني يومًا شتويًا شديدًا فقد عصفت الرياح وهطلت الثلوج بقوة. وعادها الطبيب بانغز ذلك الصباح، وعندما جسَّ نَبْضَ بيث قال لحنّة بلهجةٍ خافتةٍ: «إذا كانت السيدة مارش تستطيع أن تفارق زوجها فمن الأفضل استدعاؤُها». جاء لوري حاملاً رسالة تفيد بأن صحة السيد مارش آخذةٌ بالتحسُّن ثانية. ولكنه وجد جو في غايةِ الاضطراب. واغرورقت عيناها بالدموع وهي تخبره بما قاله الطبيب بشأن استدعاء والدتها. ولكنَّ يَدَ لوري الحانية التي أمسكت بيدها استطاعت أن تعيد إليها الراحة والثقة بالنفس. قال لها لوري مشجّعًا: «تأمّلي خيرًا يا جو. ستعود أمُّك قريبًا، وعندئذٍ يكون كلُّ شيء على ما يرام». وتابع لوري مطمئنًا: «لقد أبرقتُ إلى أمّك البارحة وأجابني بروك بأنها قادمةٌ في الحال. ستكون هنا الليلة». قفزت جو من مكانها وأحاطته بذراعيها وهي تبكي بدموع الفرح: «أوه لوري! أوه يا أمّي! أنا سعيدةٌ للغاية!»

قال الطبيب إنّ بعض التغيير قد يطرأ على بيث حوالى منتصف اللّيل وإنه سيعود عند ذلك. اضطجعتْ حنّة عند قائمةِ السرير وغَرقت في نومٍ عميق. أما لوري فقد اضطجع على السجّادة وهو يحدّق في المدفأة.

لم تنس الفتيات أبدًا تلك الليلة التي لم يعرفن فيها طعم النوم. كان المنزل صامتًا كالقبر، ولم يكن يُسمع سوى عويل الرّيح. ومرّت ساعةٌ بعد منتصف اللّيل، ولم يطرأ أيُّ تطوُّر. وغادر لوري إلى المحطّة كي يستقبل السيدة مارش، فيما تملّك الفتياتِ خوفٌ مبهمٌ من تأخُّر الطبيب.

وعند الساعة الثانية صباحًا تنبَّهتْ جو التي كانت واقفةً عند النافذة إلى صوت حركةٍ في السرير. التفتتْ بسرعة فوجدتْ أختها ميغ منحنيةً وقد أخفت وجهها، فانتابتها فكرةٌ مرعبةٌ أن تكون بيث قد توفِّيت وأن ميغ تخشى أن تُبلغها. ولكنها أحسَّت بسعادة غامرة عندما وجدتْ نظرة الألم على وجه أختها قد تلاشت فانحنت عليها وقبّلتها فوق جبينها الرطب. وسرعانَ ما استفاقت حنّة من نومها ونظرتْ إلى بيث وجسّت يدها وأصغت إلى حركة شفتيها، وقالت بدهشة: «لقد انقشعتِ الحمّى. نومها طبيعيٌّ، وهي تتنفَّس بسهولةٍ.. يا إلهي العظيم!»

وجاء الطبيب ليؤكّد لهنَّ هذه الحقيقة ويخبرهنَّ أنَّها ستتماثل قريبًا للشفاء.

لم يكن لسعادتهنَّ حدودٌ.. قالت جو: «لو أنّ أمّي تأتي الآن!»

قالت ميغ: «سأضع لها هذه الوردة البيضاء في المزهريّة حتى تكون هي ووجه أمي أوّل شيء تراه عندما تستيقظ في الصباح».

لم تشرق الشمس في يوم من الأيام بمثل تلك الروعة كما أشرقتْ ذلك الصباح، ولم يبدُ العالم بهيجًا في عيون جو وميغ المثقلة كما بدا في ذلك اليوم. واكتملت سعادتهما بصوت لوري البشوش يعلن عن وصول أمِّهما.

الفصل السادس عشر

وصيّة إيمي

فيما كانت هذه الأحداث تمرُّ بالأسرة كانت إيمي تمرُّ بأوقاتٍ عصيبةٍ في منزل العمّة مارش الصارمة. كانت تريد أن تُعَلِّمها في فترةٍ وجيزةٍ ما تعلّمته خلال ستين عامًا. وهذا ما جعل إيمي الطيّعة الودودة تشعر بنفسها وكأنها أسيرة. كان عليها أن تقوم بكثير من الواجبات المنزلية المتلاحقة. ولم يكن لديها إلا اليسير من الوقت لدروسها أو راحتها. أما الأماسيُّ فكانت عذابًا حقيقيًا لإيمي إذ تُضطر إلى سماع قصص السيِّدة العجوز المطوَّلة عن ذكريات شبابها. ولولا حضور لوري اليومي لتفقُّدها ووجود الخادمة إيستر لما كان بوسع إيمي أن تتحمَّل البقاء في ذلك المنزل المُضجر.

وإيستر امرأةٌ فرنسيةٌ عملت في خدمة السيدة مارش منذ زمنٍ طويلٍ. وكانت تمضي أوقاتًا سعيدةً معها وهي تستمع إليها تقصُّ بعض قصص حياتها. وكانت إيستر تسمح لإيمي أن تتفحَّص أشياء السيّدة مارش الجميلة وحُليّها الثمينة التي أعجبت بها إيمي أيَّما إعجابٍ وتمنّت لو تحظى بقطعةٍ منها. تساءلت إيمي: «أتمنّى لو

أعرف لمن ستؤول هذه الأشياء الجميلة بعد وفاة السيّدة مارش؟» فقالت لها إيستر هامسة: «ستؤول إليك وإلى أخواتك. لقد كنت شاهدةً على وصيَّتها». فرحتْ إيمي أيَّما فرح وتمنّت لو أنَّ السيدة مارش تسمح لهنّ باقتناء هذه الأشياء الآن. وعزمت على أن تكتب وصيَّةً مشابهةً أُسوة بعمّتها، وإن كانت لا تملك سوى أشياء بسيطة.

طلبت إيمي مساعدة إيستر في كتابة وصيَّتها. كما طلبت توقيعها عليها كشاهدةٍ وكذلك توقيع لوري كشاهدٍ ثانٍ. تناول لوري الوثيقة بجدِّيةٍ وراح يقرأ:

رغبتي الأخيرةُ ووصيَّتي

أوصت إيمي في هذه الوثيقة بكلِّ لوحاتها وصورها والمئة دولار التي تملكها لأبيها يتصرّف بها كما يشاء. وأوصت لأمِّها بملابسها وصورتها وميداليتها، وخالص حبِّها. وأوصت لأختها ميغ بخاتمها الأزرق (إذا حصلت عليه) وصندوقها الأخضر، وعقدها، ومخطَّط كتابها. وأوصت إلى جو بدبُّوسها ومحبرتها البرونزيّة. وأوصت إلى بيث (إذا عاشت بعدها) بالدمى الخاصّة بها ومِرْوَحتها وحذائها. ولم تنس إيمي السيد لورنس من وصيّتها.

تساءل لوري بعد أن قرأ الوصية: «من أدخل مثل هذه الفكرة في رأسك؟ هل أخبرك أحد عن توزيع بيث لأشيائها بين أخواتها ومنهنّ أنت؟ ومع هذا لم تفكر في كتابة وصيّة!»

أسفتْ إيمي لأنّ أختها وزّعت خصلاتٍ من شعرها على جميع أفراد الأسرة في حين أنها لم تفعل ذلك. وأرادت أن تستدرك ذلك بفقرةٍ خاصةٍ تُلحقها بالوصيَّة.

الفصل السابع عشر

حديثٌ خاصّ

كان أوّل شيء وقع عليه نظر بيث بعد أن استفاقت من رقْدَتها الطويلة هو وجه أمِّها والوردة الصغيرة. ولم تستطع وقد هدّها الضّعف سوى أن تبتسم وتعود إلى النوم ثانية.

قدّمت ميغ وجو الطعام لأمِّهما وراحتا تُصغيان لحديثها عن والدهما، وعن وعد السيد بروك بالعناية به، وعن العاصفة التي أخّرت عودتها إلى المنزل، وعن الوجه البشوش الذي استقبلها به لوري عند وصولها وقد أخذ منها الإعياء والبرد والقلق كلَّ مأخذ.

فرحت إيمي فرحًا غامرًا بلقاء أمِّها التي اصطحبتها إلى الكنيسة. وكان اللقاء مناسبة كي تفضي لأمّها بكلِّ ما لديها. وفيما كانت إيمي تشير إلى صورة المسيح الصغير في حضن أمِّه العذراء لمحت أمُّها الخاتم في يدها. فأخبرتها إيمي أنه تقدمةٌ من العمّة مارش التي قالت إنها تحبُّها وتريد أن تستبقيها عندها. وكان رأي أمِّها أنها ما زالت صغيرةً على أن تضع في إصبعها أشياء كهذه.

في تلك الأمسية وفيما كانت ميغ مشغولةً بكتابة رسالة إلى والدها تخبره فيها بسلامة وصول أمّها تسلّلت جو إلى غرفة بيث حيث كانت أمُّها وأسرّت لها بحكاية العلاقة الحميمة ما بين ميغ والسيّد بروك الذي يمنعه الخجل من مصارحتها.

سألتها الأمُّ وقد ارتسمت على وجهها علامة تعجُّبٍ: «وهل تهتمُّ ميغ به؟» وحاولت جو أن تموِّه أو تنفي أنها لاحظت شيئًا محدَّدًا على أختها.

«إذن فأنت تتخيَّلين أنّ ميغ غير مهتمَّةٍ بجون؟»

سألت جو مُتعجبةً: «مَن؟»

قالت الأمُّ: «السيد بروك، إنني أدعوه جون الآن. لقد كان مثال الإنسان الطيب في العناية بوالدك وبي. وكان صريحًا وشريفًا بشأن عواطفه نحو أختك. وقال إنّه يريد أن يحصل على بيتٍ قبل أن يتقدّم لطلب يدها. وطلب منّا أن نسمح له أن يحبَّها ويعمل على إسعادها. إنه شابٌّ ممتازٌ ولكنني لا أريد لأختك ميغ أن تتزوج فهي صغيرةٌ جدًّا». وأوصت الأم ابنتها بألاّ تخبر أختها ميغ بأيِّ شيءٍ، وقالت: «أريد أن أراهما معًا حتى أستطيع أن أحكم على مشاعرهما بصورةٍ أفضل». وتابعت الأمُّ:

«إنّ ميغ لا تزال في السابعةَ عشرةَ من عمرها. وجون يحتاج إلى سنواتٍ حتى يستطيع تأمين منزل لها. لقد اتفقت مع والدك على ألاّ ترتبط أختك بأيِّ رابطٍ أو زواجٍ قبل العشرين. إذا كان أحدهما يحبُّ الآخر فبوسعهما الانتظار وتذوّق حلاوة الحب. إنها فتاةٌ واعيةٌ وأعرف أنّها ستعامله بطريقةٍ لبقة. أتمنّى لها كلَّ السعادةِ».

الفصل الثامن عشر

لوري يرتكبُ حماقة

تفحَّصت ميغ وجه جو في اليوم التالي بإمعان، وكأنها تحاول أن تقرأ ما تُخفيه من سرّ. لم تشأ ميغ أن تستنطقها وتركتها لتُفصح عن سرِّها من تلقاء نفسها. لاذت جو بالصمت مُتجاهلةً الموضوع، وخشيت في الوقت نفسه أن تلجأ إلى ملاذها لوري خشية أن ينتزع السرَّ منها. وهذا ما حاوله بالفعل بشتى الوسائل دونما جدوى. واستطاع بالإلحاح أن يدرك أن الأمر يتعلّق بميغ والسيد بروك. وغاظه ألاّ يكون موضع ثقة مُعَلِّمه فعزم على الانتقام.

في اليوم التالي سَلَّمت جو رسالةً مختومةً إلى ميغ ممّا أثار دهشة الأخيرة. وما كادت ميغ تقرأ بضعة أسطرٍ حتى جفلت وندّت عنها صيحة فزعٍ: «هذا خطأٌ فاحشٌ!» واتهمت ميغ أختها جو بتدبير مكيدةٍ ونعتتها بعبارات قاسيةٍ. نفت جو التُّهمة عن نفسها، وراحت تقرأ الوريقة، التي ألقت بها ميغ، مع أمِّها. كانت الرسالة المكتوبة بخطٍّ غير مألوفٍ تقول:

عزيزتي الغالية مارغريت

لا أستطيع أن أكبح عواطفي أكثر من ذلك، وأريد أن أعرف مصيري قبل أن أعود. لا أجرؤ على إعلام والديك بعد، ولكنني أعتقد أنهما سيكونان راضيين عندما يعلمان أنَّ كلينا يهيم بالآخر. سوف يساعدني السيد لورنس في الحصول على موقعٍ مناسبٍ، وأنت يا غاليتي ستمنحينني السعادة. ألتمس منك ألاّ تخبري عائلتك بشيءٍ الآن، وأن ترسلي لي فقط كلمةً واحدةً تبعث على الأمل عن طريق لوري.

المخلص لك جون

صاحت جو بغيظ بعد قراءة الرُّقعة: «يا للَوغد! سينال منّي تقريعًا شديدًا ولسوف أجبره على الاعتذار». وأدركت الأمُّ هنا أنّ في الأمر مكيدةً ما. وطلبت من جو أن توضح موقفها أولاً. وأقسمت جو أنها لم ترَ هذه الرقعة من قبل. كما أن السيد بروك لا يمكن أن يكتب بأسلوبٍ كهذا.

وهنا فاجأت ميغ الجميع: «بل إنّه يشبه أسلوبه!»

واعترفت ميغ بأنّها أجابت عن رسالته. هنا طلبت منها أمُّها بلهجةِ آمرةٍ أن تقصَّ عليها الحكاية كلَّها فقالت ميغ: «تلقيت رسالته الأولى من لوري الذي بدا لا يعرف شيئًا عن فحواها. قلقت في البداية وأردت أن أعلِمَك ولكنني آثرت ألاّ أخبرك لأنني أعرف مقدار معزّتك للسيد بروك. اغفري لي يا أميّ. أشعر بسخافة موقفي الآن».

سألت السيّدة مارش: «ماذا قلت له؟»

قالت ميغ:

«قلت له إنني ما زلت صغيرةً على مثل هذه الأمور، وإنه ينبغي أن يتحدث إلى والدي، وشكرتُ له حُسْنَ معاملتِهِ وطلبتُ أن نظلَّ أصدقاءَ لفترة طويلة».

ابتسمت الأمُّ لجواب ابنتها، فيما صاحت جو باستحسانٍ: «هيّا تابعي يا ميغ.. ماذا كان ردُّه؟ كتب بأسلوبٍ مختلفٍ مؤكدًا أنه لم يكتب أيّة رسالة حبٍّ».

وهنا أدركت جو وقد أصابها ما يشبه الدُّوار أنّ لوري هو كاتب الرسالتين واحتفظ بالرّسالة حتى يشمت بها لأنها لم تخبره بسرها.

قالت ميغ: «لا تحتفظي بأسرارٍ بعد اليوم. أعلمي أمّك بكلّ شيء كما أفعل».

أرادت الأمُّ أن تضع حدًّا لهذه المهازل على الفور وطلبت من جو أن تُحضر لوري. وعادت به جو بالفعل من دون أن تخبره بشيء. وعندما وصل ورأى وجه السيدة مارش المتجهِّم، أدرك على الفور الموقف. بقيت الفتاتان خارج غرفة الاستقبال. وطال الحوار. وعندما دخلتا كان وجه لوري ينمّ عن ندمه. وعاد لوري يطلب المغفرة من ميغ التي عاتبته بشدّة في البداية، ثم عادت فغفرت له أمام توسّلاته الصادقة. وانفرجت أسارير الأمِّ، وشعر الجميع أن الغمامة قد انزاحت.

الفصل التاسع عشر

المروجُ الخضراء

مرّت بعد ذلك أسابيعُ هادئةٌ. ومع اقتراب عيد الميلاد، راحت جو تقترح احتفالاتٍ غريبةً احتفاءً بهذا العيد السعيد غير العادي. وبشّرت أيامٌ عدةٌ من الطقس اللطيف بعيد ميلاد سعيد. وشعرت بيث بنشاطٍ زائدٍ ذلك اليوم وسارعت إلى ارتداء هديّة أمّها. قالت بيث وقد غمرها الجميع بالهدايا والمحبّة: «لو كان والدي هنا لكنت في قمة السعادة». وردّدت بعدها شقيقاتها الثلاث الأمنيّة ذاتها.

قالت السيدة مارش بامتنانٍ وهي تقلّب نظرها ما بين رسالة زوجها وابتسامة بيث، والحلية الذهبية التي وضعتها بناتها على صدرها: «هل يمكن أن أكون أسعد حالاً؟»

فتح لوري باب غرفة الضيوف وأطلَّ برأسه بهدوء. كان سعيدًا بما استُقبل به من حُسن الوِفادة وهو يقدّم هديته لأسرة مارش في عيد الميلاد.

وفجأة دخل السيد مارش ومعه السيد بروك. أذهلت المفاجأة

الجميع لبرهةٍ وعقدتْ ألسِنتهم. وسرعانَ ما امتدت الأذرع المشتاقة لتعانق الأب الغائب. وكان من بين هذه الأذرع ذراعا بيث التي تحاملت على نفسها وفتحت باب غرفتها لتلقي بنفسها في أحضان والدها.

عمّت السعادة الغامرة المنزل. ولم تنس السيدة مارش في ذروةِ سعادتها أن تشكر للسّيد بروك عنايته الصادقة بزوجها. ولم ينس بروك بدوره أن يُذكِّر بأن السيد مارش يحتاج إلى الراحة.

كان عشاء الميلاد رائعًا، وعلى المائدة تصدّر الديك الروميُّ المُحَمَّرُ الشهيّ. وكان على المائدة السيد لورنس وحفيده اللذان كانا مدعوَّين إلى العشاء. وعلى رأس المائدة جلس الأب وابنته بيث جنبًا إلى جنبٍ على كرسيّين مريحين. شرب الجميع أنخاب الصحة، وتحدّثوا، وغنّوا، واستمتعوا بوقت سعيدٍ حقًّا. وما إنْ رحل الضيوف حتى تحلّقت العائلة السعيدة حول المدفأة، وأخذت الفتيات يتحدثن عن ذكريات العامِ الفائت، وما واجهن خلاله من صعاب.

قال الأب وهو يُقلّب نظره بين وجوه بناته الأربع: «ما زال أمامكنَّ طريقٌ شاقٌّ بعض الشيء أيتها المناضلات الصغيرات ولكنّكنَّ أبديتُنَّ جانبًا من الشجاعة، وأعتقد أنّ الأعباء في طريقها إلى الانزياح عن طريقكنّ».

دُهشت البنات وهنَّ يسمعن كلام والدهنَّ، وتساءلن عمّا إذا كانت والدتُهنَّ قد أخبرَته شيئًا. قال الأب: «لقد قمت باستكشافاتٍ

كثيرةٍ هذا اليوم». وأمسك الأب بيد ابنته ميغ وشدَّ عليها قائلاً: «غاليتي ميغ، أنا فخورٌ بأن أصافح هذه اليد العاملة الصغيرة». قالت بيث التي كانت جالسةً في حضن أبيها هامسةً: «وماذا عن جو؟ قل شيئًا عنها. لقد كانت شديدة الحنوّ عليَّ». قال الأب ضاحكًا: «أنا لم أعد أرى جو الصغيرة التي تركتها منذ عام. أنا أرى اليوم جو الصَّبيَّة التي تعرف كيف تلبس وتتحدّث وتمشي. وأكاد أفتقد ابنتي الحرون، ولكن إذا كان الله قد أبدلني بها امرأةً قويةً ومُعينةً فسأكون في غاية الرضى».

قالت إيمي، وهي تنتظر دورها: «والآن جاء دور بيث».

قال الأب وهو ينظر إلى وجهها بحنان: «لقد أعادك الله إليَّ سالمةً يا بيث وأرجو أن يوفّقني في أن أحافظ عليك».

وقال بعد لحظة صمت وهو ينظر إلى إيمي التي كانت جالسةً بين قدميه: «لقد لاحظت أنّ إيمي تقوم بكثيرٍ من الواجبات المنزلية، وتُعنى بالآخرين، واستنتجت أنها تفكّر بالآخرين أكثر مما تفكّر بنفسها، وأنا فخورٌ بذلك. وسأكون فخورًا أكثر عندما أرى ابنتي المحبوبة والموهوبة تجعلُ الحياة جميلة لها وللآخرين».

سألت جو: «فيم كنت تفكرين يا بيث؟»

ـ «كنت أقرأ في «تقدُّم الرحّالة» كيف وصل كريستيان وهوبنل إلى مرج أخضر مبهج، بعد الكثير من المتاعب، حيث يزهر الزّنبق طوال العام، وحيث أقاما بسعادةٍ كما نفعل الآن، قبل أن يتابعا رحلتهما إلى غايتها».

قالت بيث ذلك ثم قامت من حضن أبيها وخطت خطوات نحو البيانو قائلةً: «لقد حان وقت الغناء. سأحاول أن أغنّي أغنية ابن الراعي التي سمعها الرحّالة. لقد وضعت اللحن من أجل والدي لأنّهُ يحبُّ كلمات الأغنية».

الفصل العشرون

العمّةُ مارش تحلُ المشكلة

تحلّقت الأمُّ وبناتها في اليوم التالي حول السيد مارش تاركات كلَّ شيء للاهتمام به والإصغاء إليه. وكانت علامات القلق ترتسم على وجهي السيد والسيدة مارش وهما يتابعان ميغ بنظراتهما. وبدا وكأنَّ ثمة مسألةً ما معلَّقة تحتاج إلى حلّ. ولم تكن هذه المسألة سوى تحديد علاقة جون بميغ. كانت جو ترى أن تُحسم هذه المسألة، وفي حين أنّ ميغ ما كانت تستطيع أن تبدي رأيًا طالما أنّ جون لم يتقدم لطلب يدها، فضلاً عن أنّ والدها لا يزال يعتقد أنها صغيرة. وفيما الأختان تتحاوران حول الرد المناسب إذا ما تقدَّم جون لطلب يدها، إذا بجون يدخل ويلقي تحية المساء عليهما، وقد بدا على وجهه الاضطراب. وقال ليبرّر مجيئه إنه جاء لأنه نسي مظلَّته ولأنه يريد أن يتفقّد صحَّة السيد مارش.

تسلَّلت جو من الغرفة كي تترك لميغ فرصةً للتحدُّث مع جون. ولكن ما إنْ خرجت حتى انسحبت ميغ بدورها نحو الباب قائلةً: «أمّي تودُّ أن تراك. أرجو أن تجلس وسوف أطلبها».

قال لها السيد بروك وقد بدا متألِّمًا: «لا تذهبي. هل أنت خائفةٌ مني يا مارغريت؟» احمرَّ وجه ميغ، كمن أحسَّ بأنه اقترف ذنبًا، وأدهشها أنه يخاطبها باسمها (مارغريت). ولمّا كانت حريصةً على أن تبدو ودودةً وطبيعيةً فقد قالت له إنها لا يمكن أن تخاف منه وقد كان طيبًا جدًّا مع والدها، وإنها لا تريد سوى أن تشكره.

قال وهو يمسك يدها بكِلْتا يديه وينظر إليها بتوقٍ شديدٍ: «هل أدُلُّك كيف تشكرينني؟» سحبت ميغ يدها مذعورةً وقالت وهي تحاول الانسحاب: «لا، أرجوك».

وتابع السيد بروك برقَّةٍ: «لا أريد أن أزعجك. أريد أن أعرف فقط إذا كنت تهتمِّين بي. إنني أحبك يا غاليتي كثيرًا».

أربكت المفاجأة ميغ ونسيت كلَّ ما كانت حضّرَت من كلمات لهذه المناسبة وألحَّ عليها جون ليعرف رأيها، وقال إنه لا يستطيع أن يعمل بحماسةٍ ما لم يحصل على هذه المكافأة. قالت ميغ بتعثُّر إنها لا تزال صغيرةً، وتابعت وهي تسحب يدها من بين يديه، إنها لا تستطيع أن تختار الآن، وطلبت منه أن يتركها ويمضي في سبيله.

شعر السيد بروك المسكين وكأنّ أحلامه تنهار أمامه. ومع هذا فقد ظلَّ متمسِّكًا بأهداب الأمل علّها تغيِّر رأيها. ولكنَّ جواب ميغ كان قاسيًا وقاطعًا: «لا تفكِّر بي مطلقًا».

بدا السيد بروك حزينًا شاحبًا ولكنَّه ظلَّ ينظر إليها برقّةٍ وتوقٍ شديدٍ علَّ قلبها يرقُّ له.

في تلك اللحظة المثيرة دخلت العمّة مارش. وكان دخولها المباغت مفاجأة أذهلت الاثنين. وراحت تقلّب النظر ما بين وجه جون الشاحب ووجه ميغ المتورّد خجلاً، باستغراب. وسألت العمّة ابنة أخيها عمّن يكون جون وعن سرّ موقفها المرتبك. وحاولت ميغ أن تتملّص من الإجابة، ولكنّ العمّة أصرّت على معرفة كلّ شيء. وعندما عرفت شخصيّته استشاطت غضبًا وحذّرت ميغ من هذا الزواج وهدّدتها بحرمانها من الميراث إن هي ارتبطت بهذا الإنسان البسيط.

كانت العمّة مارش تعرف كيف تثير روح المعارضة لدى الآخرين. وهذا ما حدث بالنسبة لميغ التي استفزّها تحيّز عمّتها وإلحاحها؛ فاندَفعَتْ إلى رفض ما تقوله عمّتها بعناد قائلةً:

«سأتزوّج مَن أشاء يا عمتي مارش، وبوسعك أن تهبي نقودك لمن تشائين». اشتدّ غضب العمّة لرفض ميغ وقالت لها إنها ستندم على تصرُّفها. ثم خفّفت لهجتها وراحت تنصحها بالتفكير في الموضوع جديًّا، وأن تتعقّل في اتخاذ قرارها، وإلا فإنّها ستندم طوال حياتها. وامتدَّ بينهما حوارٌ ساخنٌ كانت العمّة خلاله تحاول أن تُعيّر جون بفقْره وصِغَر شأنه، في حين انقلبت ميغ إلى الدفاع عنه بحرارةٍ مُعدِّدة مزاياه وفضائله. ونفت بشدّةٍ أن يكون جون يريد أن يستغلّ علاقاتها الغنيّة، واحتجّت بشدةٍ على هذه الاتهامات المتحاملة قائلة: «جون لا يريد أن يتزوجني من أجل المال... نحن نريد أن نعمل معًا. أنا لا أخشى الفقر، فأنا سعيدةٌ حتى هذه اللحظة وسأكون سعيدةً معه».

استشاطت العمّة غضبًا من موقف ابنة أخيها، وهدّدت بأنها ستغسل يديها من الموضوع برمّته. وقالت إنها لن تمنحها أيَّ شيءٍ عند زواجها، وعلى أصدقاء جون تكفُّلُها.

صفَقتِ العمّة الباب في وجه ميغ وخرجتْ، تاركةً إياها في بحرٍ من الحيرة. وقبل أن تستفيق من حالتها، فاجأها جون بأنه كان يستمع إلى الحوار كلِّه، وهو يشكرُ لها دفاعَها، وهذا ما يدلُّ على أنها مهتمّةٌ به. وطلب إليها جون أن يبقى لأنّه سيكون سعيدًا بذلك، فوافقته ميغ وهي تخفي وجهها في صدره.

بعد دقائق قليلة من مغادرة العمّة الغرفة نزلت جو لتستطلع ما جرى بين أختها وجون وما إذا كانت قد نفّذت خطّة استبعاده التي اتفقتا عليها. ولكنها بُغتت عند عتبة الباب بمفاجأةٍ أذهلتها. وندّت منها صرخةٌ عندما رأت أختها في جلسةٍ حميمةٍ مع جون. وعندما تنبّه العاشقان قفزتْ ميغ، في حين اقترب منها جون قائلاً بسعادةٍ: «أختي جو، هنّئيني!»

لم تستطع جو أن تتحمّل الموقف وأجفلت مبتعدةً وطلبت من والديها أن يتدخّلا. ولم تتمالك نفسها من البكاء وهي تُخبر شقيقتيها بيث وإيمي بهَوْل ما رأت.

لم يدر أحدٌ بالحديث الطويل الذي جرى بين الوالدين والسيّد بروك في غرفة الاستقبال. ولكن عندما حان وقت العشاء كانت السعادة باديةً على وجوه الجميع وخصوصًا على وجهَي جون وميغ. وشعرت جو أنّ كآبتها لا مبرّر لها وسط سعادة كلّ مَن حولَها.

قالت السيدة مارش: «لقد هبّت رياح التغيير.. كلُّ عائلةٍ تصادف سنةً مليئةً بالأحداث حافلةً بضروب الأتراح والأفراح. تلك كانت حالَ السنة الأخيرة، ولكنَّها انتهت على خير في النهاية».

قالت جو: «آمل أن تكون السنة المقبلة أفضل».

وقال جون وهو يبتسم لميغ: «آمل أن تنتهي السّنة الثالثة على أفضل ما يرام».

وكانت عبارة جون تدلُّ على أنه اتّفق مع ميغ ووالديها على فترة خطبةٍ تمتد ثلاثَ سنواتٍ يعملان خلالها على تدبير أمورهما واستكمال استعداداتهما.

ودخل لوري يحمل الورود للخطيبين. وعمَّ الفرح جوَّ البيت الذي بدأت ترفرف فوقه أجنحة السعادة.

الفصل الواحد والعشرون

شائعة

لم يطرأ كثيرٌ من التبدُّلات طوال السنوات الثلاث التالية على الأسرة الهادئة. انتهت الحرب وعاد السيد مارش آمنًا إلى بيته. أمّا جون بروك فكان يكافح برجولة، ويكرّس نفسه للعمل كي يوفّر منزلاً لميغ. وبسبب عصاميّته الشديدة رفض أكثر من عرضٍ سخيٍّ من قبل السيد لورنس، وآثر أن يكدَّ معتمدًا على نفسه.

أما ميغ فقد كانت تمضي الوقت بين العمل والانتظار، وتزداد خبرةً بشؤون المنزل كما تزداد جمالاً. وكان المستقبل يزداد إشراقًا حين كانت تجلس مع جون عند الغروب وهما يتحدثان عن مشروعاتهما الصغيرة.

وامتنعت جو عن الذهاب إلى بيت العمّة مارش وقد آثرت إيمي التي عرفت كيف تسايرها، وتفرّغت للأدب، الذي كان يَدُرُّ عليها بعض النقود. أما لوري الذي كان قد التحق بالكلّية إرضاءً لجدِّه، فقد بات شغوفًا بها إرضاء لمستقبله.

صار اسم البيت الذي هيّأه السيد بروك لميغ «برج الحمام». كان بيتًا مُنمْنَمًا ذا حديقةٍ صغيرةٍ خلْفه ومدخلٍ معشوشبٍ ضيّقٍ أمامه، حيث أرادت ميغ أن تزرع الأزهار والشُّجيرات الخضراء الصغيرة، وفي وسطها نافورة ماء. لم يكن البيت باذخًا ولكنه كان ساحرًا بأثاثه البسيط وترتيبه الأنيق.

قالت السيدة مارش تسأل ابنتها وهي تتأبط ذراعها وتدخل معها المملكة الجديدة: «هل أنت راضية؟ هل يبدو لك منزلاً لائقًا وتشعرين بأنك ستكونين سعيدة هنا؟» وكان جواب ميغ أنها تشعر بسعادةٍ لا توصف، وأنّ الفضل في ذلك يعود إلى كلٍّ من حولها. وتابعتْ مع أمّها وأختها بيث تفقُّد أرجاء المنزل، ورحن يتندّرن حول مواقف العمّة مارش من حرمان ميغ هديّة الزواج.

كان الجميع في انتظار لوري في زيارته الأسبوعية التي تعتبر حدثًا مُهمًّا في حياة تلك الأسرة الوادعة. ويأتي لوري حاملاً معه هديّةً مُغَلَّفةً إلى ميغ. ولمّا لاحظ نظرات الدهشة والاستفسار في عيون مَن حولَه، قال: «إنها شيءٌ مفيدٌ للمنزل في حالة الحريق أو السَّرقة. وما عليك إلا أن تهزّي هذا الجهاز إذا ما شعرت بالخوف حتى يوقظ الجوار في الحال». وجرَّب لوري الجهاز أمامهنَّ إثباتًا لكلامه.

استفردت جو بلوري قليلاً وسألته تغيير سلوكه. وقالت له إنه يبدِّد كثيرًا من المال على الآخرين، وإنّ كرمه الزائد وطيبة قلبه يجعلان الآخرين يطمعون في ماله. وانتقدت جو إسرافه في ملابسه وتأنُّقه المفرط.

كانت لهجة جو أقرب إلى التقريع، ومع هذا لم يُبد استياءً وأخذ الموضوع بشيءٍ من المزاح كعادته. وحاول أن يُغيِّر مجرى الموضوع بالحديث عن فتى صغيرٍ يدعى باركر مولعٍ بإيمي. وقال إنه يتحدث عنها دائمًا ويكتب لها الشِّعر. ولعل من الأفضل أن يضع حدًّا لهذا الموضوع من البداية.

قالت جو بشيءٍ من الحدَّة: «طبعًا فنحن لا نريد زيجةً أخرى في عائلتنا حتى سنواتٍ مقبلات». قال لوري: «الأيام تمضي بسرعةٍ والدَّور الآتي دورك».

قالت جو: «لا تفزع، لا أحد يريدني».

قال لوري وهو ينظر إلى جو نظرةً ذات معنى: «إنّك لا تدعين فرصةً لأحدٍ، ولا تظهرين الجانب الرقيق من شخصيتك. وإذا ما وجد أحدهم بصيصًا من نور وحاول أن يبدي إعجابه سرعان ما تحبطينه، وتحتدُّ طباعك بحيث لا يعود أحدٌ يجرؤ على لمسك أو النّظر إليك».

قالت جو محتدَّةً: «أنا لا أحبُّ تلك الأشياء. أنا مشغولةٌ جدًّا ولا وقت عندي لمثل هذا الهراء. لا تقلْ مزيدًا في هذا الموضوع، فعرس ميغ يشغلنا جميعًا».

قال لوري وهو يودّعها عند البوّابة: «تذكّري يا جو أنّك التّالية».

الفصل الثاني والعشرون

العُرسُ الأوّلُ

بدت ميغ كوردةٍ متفتِّحةٍ مثل أزهار حزيران في ذلك اليوم. قالت ميغ إنّها لا تريد الملابس الزاهية ولا عرسًا من الأعراس المتعارف عليها. إنّها تريد عرسًا لمن تحبُّهم وتشعر بذاتها بينهم. أعدّت ميغ ثوب عرسها بنفسها. وكانت الحلية الوحيدة التي تقلَّدتها زنابق الوادي التي يحبُّها جون أكثر من أية أزهارٍ أخرى.

قالت إيمي وهي تُقلِّب نظرها في أختها بإعجابٍ: «إنّك تبدين كميغ التي عهدناها دومًا مع فارقٍ واحدٍ هو أنّك اليوم جميلة جدًّا ورقيقة جدًّا، وكم أودُّ أن أعانقك لولا خوفي من أن أفسد ثوبك». فتحت ميغ ذراعيها لشقيقاتها وقالت: «قبِّلنني ولا تبالين بثوبي».

بدت شقيقات العروس الثلاث في أبهى حلّةٍ وأجمل زينةٍ بلباسهنّ الفضيِّ ووجوههنّ النضِرة المستبشرة.

لم تكن هناك كما اتُّفق مظاهر احتفاليةٌ، وكان كلُّ شيءٍ يبدو طبيعيًا. ولهذا استهجنت العمّة مارش عندما وصلت أن تجد العروس

تُهرع للترحيب بها، وأن تجدِ العريس وقد لفَّ حوله طوقًا من الأزهار، وقالت بلهجة استنكارٍ لابنة أخيها إنّ عليها أن تتصدّر في مكانها حتى آخر لحظةٍ كي يراها الجميع. أجابتها ميغ مُحتدّةً بأنها ليست للعرض وأنّ الحضور لم يأتوا كي يحدِّقوا فيها أو ينتقدوا ثوبها أو يُحصوا تكلفة المأدبة الصغيرة التي أعدّتها. إنها سعيدة بما يقوله الآخرون وهي تريد أن تكون حفلة العرس على هواها.

عمَّ سكوتٌ مفاجئٌ عندما وقف السيّد مارش والعروسان تحت القوس وتحلَّقت حولَهم الأمُّ وبناتها. لم يسمع أحدٌ تقريبًا صوت العريس المرتعش، في حين قالت العروس بثقةٍ وصوت جليٍّ وهي تنظر في عيني عريسها: «أوافق».

استطاعت جو اللصيقة بالعروس أن تمنع دموع الفرحِ. وأخفت بيث وجهها في صدر أمِّها، في حين وقفت إيمي شامخة كتمثالٍ رشيق. كانت جبهتها ناصعة البياض كنور الشّمس وشعرها قد ازدان بالأزهار.

ما إنْ تمّت آخر خطوةٍ في إجراءات عقد القران حتى بكت ميغ قائلةً: «أوّل قبلة لمارمي». وبدت العروس كوردة مُتفتّحةٍ وهي تتلقّى التّهاني. كان كلُّ شيء على ما يرام رغم بساطته. وبعد تناول العشاء الخفيف تفرَّق المدعوّون في أرجاء المنزل والحديقة.

وتحلَّق الأزواج حول العروسين وراحوا يرقصون وقد تشابكت أيديهم، فيما اصطفَّ العزّاب والعوازب أزواجًا أزواجًا. ورقص

الجميع بمرح وسعادةٍ. تمنّت العمّة مارش السعادة للعروس وباركت لها وفي نفسها شيءٌ من الغصّة.

لم يكن بيت الزوجيّة الصغير بعيدًا عن بيت أسرة مارش. وكان على العروسين أن يخطوا خطواتٍ قليلةً حتى يصلا إلى عشِّ الزوجية. وعندما وصلت العروس إلى الباب بثوبها الأبيض الرائع التفَّ الجميع حولها لوداعها. كانوا يتابعونها بوجوه ملؤها الحبُّ والأمل وهي تبتعد متّكئةً على ذراع زوجها ويداها ممتلئتان بالورود. وهكذا بدأت حياة ميغ الزوجيّة.

الفصل الثالث والعشرون

محاولاتٌ فنّيّة

يحتاج الناس إلى وقت طويل حتى يتعلّموا الفرق بين الموهبة والعبقرية ولا سيّما لدى الطامحين من الشبان والشابات، غير أن إيمي كانت تتعلّم هذا الفرق بينهما من خلال الكثير من المحن. جرَّبت إيمي في البداية الرسم بالريشة والحبر وأصابت نجاحًا. ولكنّها لمْ تلبث أن تحوَّلت إلى الرسم بالفرشاة والألوان، مستوحية لوحاتها من الريف والبحر، ومتأثرة بأعمال الرسّامين الكبار. وجرَّبت بعد ذلك الرسم بالفحم كما استعملتِ الطين والجَصّ.

ومع تقلُّبها في تجارب الفنِّ وممارساته فإنّها لم تغفل الجانب الاجتماعيَّ من الحياة، فقد كانت تتعلّم وتتمتّع بأشياءَ أخرى لأنّها كانت تتطلّع إلى أن تكون امرأةً لافتةً للنظر. واستطاعت بحصافتها أن تحقّق نجاحًا في هذا المجال.

ذات يوم طلبتْ إيمي من والدتها أن تسمح لها بدعوة عددٍ من زميلاتها قبل أن ينقضي العام المدرسيُّ، لقضاء يوم في أحضان

الطبيعة، وأن تُحضر لهنّ بعض المآكل والمشروبات. وقالت إنّها ستستأجر عربة للنزهة تكفي لعدد المدعوّات اللواتي تتوقّع إيمي حضورهنّ.

وجدت السيدة مارش أنّ فكرة ابنتها ربما تكون باهظة التكاليف، حتى وإن تطوَّعت إيمي أن تدفع هذه التكاليف من جيبها. واقترحت الأمُّ دعوةً أقلَّ كلفةً وأكثر تواضعًا تبدو مختلفةً عمّا اعتادتْهُ زميلاتها من حفلاتٍ أو دعواتٍ باذخة. ولكنّها أصرّت على موقفها لأنّها أرادت أن تظهر وليمتها بالمظهر اللائق.

وافقت الأمُّ تاركةً الأمر إلى حسن تدبير ابنتها. وسرعان ما ذهبت إيمي سعيدةً إلى شقيقاتها لتُطلعهنَّ على خطّتها. وافقت ميغ في الحال وأبدت استعدادها لتقديم كلِّ مساعدةٍ ممكنة. ولكن جو امتعضتْ من الفكرة ووجدتْها مضيعةً للوقت والمال من دون طائل.

دافعت إيمي عن فكرتها بحرارة وعن زميلاتها اللواتي كنّ طيباتٍ معها ويتمتعنَ بمواهب عديدةٍ ورأت أنّها من خلال مثل هذه المناسبات تستطيع أن تكتسب مودّة الآخرين وتدخل المجتمعات رفيعة المستوى. وهذه أمورٌ تحرص عليها.

وافقتْ جو على مساعدة أختها على مضض. وسرعانَ ما أرسلت الدعوات. ولكن هذه العجالة أدّت إلى نوعٍ من الاضطراب في تحضير الأطعمة، كما أدّت إلى سوء تقدير للتكاليف جعل النفقات أكثر بكثير مما توقّعتْ إيمي. وزاد الطين بلّةً أنّ كلاًّ من بيث وميغ اضطرَّتا إلى

عدم مساعدة إيمي في زحمة الاستعداد للوليمة لأسبابٍ قاهرة. واعترفت إيمي بأنه لولا مساعدة أمّها لَما كان بوسعها أن تُنقذ الموقف.

بدا الغداء في الوقت المحدّد رائعًا. وتعهّدت الأمُّ وميغ مسؤولية التأهيل بالضيوف في حين تطوّعت بيث لمساعدة حنّة وراء الكواليس. أمّا جو فقد تعهّدت أن تكون بشوشة لطيفة المعشر مع الجميع. وأما إيمي فكانت تُمنّي النفس بأوقاتٍ سعيدةٍ بعد الغداء عندما تذهب مع رفيقاتها في جولةٍ فنّية.

خفّت حماسة الأسرة مع هطول الأمطار قبل وقت الغداء. ولكنّ إيمي كانت واثقةً من حضور المدعوّات، وانهمك كلٌّ من في المنزل في إعداد الطعام. وعند الساعة الثانيةَ عشرةَ كان كلُّ شيءٍ جاهزًا، فطلبت إيمي عربة النزهة وذهبت مسرعةً للقاء ضيوفها.

سمعتِ السيدة مارش أصوات دبدبةٍ فقالت إنّهنَّ قادماتٌ، وهُرعت إلى الرّواق لاستقبالهنّ، ولكنّها ارتدّت خائبةً عندما لم تجد في العربة سوى إيمي وضيفةٍ واحدة. وصاحت على بيث كي تساعد حنّة في إعادة ترتيب المائدة؛ إذ سيكون من السُّخف وضعُ كلِّ هذه الصحون والطعام لضيفةٍ واحدة.

وبالرّغم من هذا، فقدْ كانت إيمي سعيدةً برفيقتها الوحيدة التي لبّت الدعوة. وسُرَّت الآنسة أليوت بجوِّ البهجة من حولها. وبعد الغداء، اصطحبت إيمي رفيقتها في جولةٍ قريبةٍ دامت حتى الغروب. وعندما عادت مساءً متعبةً كان كلُّ أثر للنزهة قد اختفى.

كانت إيمي حزينةً لما أصابها من خيبة أملٍ وقالت بأسى: «أشعر بالغثيان من منظر الطعام ولا داعي للإكثار من الأكل حتى لا تُصَبْن بالتخمة مثلي فتؤذين أنفسكنَّ».

علّقت جو ساخرةً على عودة إيمي مع ضيفةٍ واحدة. أمّا الأمُّ فقالت مواسيةً: «أنا آسفةٌ جدًّا لشعورك بخيبة الأمل، ولكنّنا جميعًا بذلنا كلَّ ما في وسعنا لإرضائك». قالت إيمي وفي صوتها رعشةٌ: «أنا راضيةٌ. لقد قمتُ بما التزمتُ به، وليس خطئي أنني أخفقت وهذا عزائي. أشكركنَّ جميعًا على مساعدتي. وسأشكركنَّ أكثر إن لم تُلَمِّحن إلى هذا الموضوع طوال شهر».

لم يثر أحدٌ هذا الموضوع طوال شهورٍ ولكنَّ كلمة «وليمةٍ» كانت تبعث على الابتسام بين الجميع.

الفصل الرابع والعشرون

دروسٌ في الأدب

ابتسم الحظُّ لجو فجأةً وكانت قد عادت تمارس هواية الكتابة الأدبية بهمةٍ ونشاط. وعندما كان يأتيها الإلهام كانت تستغرق في كتابةِ أحداثِ رواياتِها. ذاتَ يومٍ، اصطَحَبَتْ الآنسة كروكر لحضور محاضرةٍ تاريخية. وفي قاعة المحاضرات تعرّفت جو بشابٍّ كان جالسًا بجوارها مُستغرقًا في قراءة جريدة. ولما وجدها الشابُّ مهتمّةً بما يقرأ أعطاها نصف الجريدة قائلاً: «هل تريدين القراءة؟ إنّها قصةٌ رفيعة المستوى». وقرأت جو، وسرعان ما غرقت في تفاصيل القصة وأحداثها. وعندما سألها الفتى عن رأيها في القصة بعد أن أتمَّت قراءتها قالت له جو: «أعتقد أننا نستطيع أن نكتب مثلها إذا حاولنا». فأجابها الفتى بأنَّ من يكتبون مثل هذه القصص يكسبون جيدًا. وأشار إلى اسم الكاتبة تحت العنوان.

بدأت المحاضرة ولكنَّ جو لم تُلقِ لها بالاً. كانت مشغولةً بالتفكير في الكتابة للصحيفة وبالجائزة التي يمكن أن تحصل عليها لقاء قصة عاطفية. وما إن انتهت المحاضرة ونهض الحاضرون حتى كانت

عناصر القصة قد تجمَّعت في مخيّلتها وراحت تستعرضها في ذاكرتها.

لم تنبىء جو أحدًا عن خطّتها، وانكبّت على الكتابة. وعندما فرغتْ من كتابتها أرسلتها بالبريد إلى الصحيفة، مشفوعةً بملاحظة تقول: «إن لم تنل القصة الجائزة فأنا سأكون سعيدةً بأية مكافأةٍ تستحقُّها».

كانت الأسابيع الستّة فترةً طويلةً حتى كادت جو تفقد الأمل في نشر قصتها. ولكنّ رسالةً وصلتها أحيت الأمل في نفسها من جديدٍ، إذ ما إنْ فتحتْها حتى سقط في حضنها شيك بمئة دولار. وبعدما استفاقت من المفاجأة أخذت تقرأ الرسالة وتبكي، فقد كانت الرسالة عند جو أثمن من الجائزة لأنّها كانت حافلة بعبارات التشجيع.

بدتْ جو شديدة الفخر والاعتزاز بنفسها عندما فاجأتْ أفراد الأسرة والرسالة في إحدى يديها والشيك باليد الأخرى، مُعلنة فوزها بالجائزة. عمَّ البِشر الجميع، وراحت أخواتُها يتخاطفن الجريدة لقراءة القصة. إلاّ أنَّ والد جو اكتفى بهَزِّ رأسه قائلاً: «تستطيعين تقديم ما هو أفضل يا جو، تطلّعي نحو الأسمى ولا تفكّري بالنقود».

قالت إيمي: «أظنُّ أنَّ النقود هي أفضل ما في هذا الموضوع. ماذا تنوين أن تفعلي بثروةٍ كهذه؟»

أجابت جو بسرعة: «أودُّ أن أرسل أمّي وبيث إلى شاطىء البحر لقضاء شهرٍ أو اثنين هناك».

صاحت بيث: «أوه! يا لها من فكرةٍ رائعة. ولكنني لا أستطيع ذلك لأنّني سأكون أنانيةً إن فعلت».

قالت جو: «بل ستذهبين. هذا ما كنت أفكّر فيه. وهذا ما جعلني أنجح».

وأخيرًا، ذهبت الأمُّ وابنتها بيث إلى شاطىء البحر. وكانت جو سعيدة راضية عن الوجه الذي أنفقت فيه جائزتها. وانصرفت إلى العمل مستبشرة، وربحت الكثير من الجوائز التي كانت تنفقها في تسديد بعض نفقات المنزل في ذلك العام.

لم تلفت قصص جو الأنظار كثيرًا ولكنّها كانت تجد سوقًا رائجةً للنشر، وهذا ما شجّعها على إعادة نسخ روايتها، وتقديمها إلى إحدى دور النشر التي اشترطت لنشرها أن تُختصر إلى ثلث حجمها. وطُبعت بالفعل ونالت جائزةً نقديةً مقدارها ثلاثمئة دولار.

الفصل الخامس والعشرون

خبراتٌ منزلية

بدأت ميغ حياتها الزوجية بالتصميم على أن تكون ربّة منزلٍ نموذجيةً، فالبيت ينبغي أن يكون فردوسًا لجون الذي ينبغي أن تستقبله دومًا بابتسامة، وأن توفّر له كلَّ أسباب الراحة. وكانا زوجين سعيدين حتى بعدما اكتشفا أن ليس بالحبِّ وحده يحيا الإنسان. كانا يشعران أنَّ بيتهما الصغير هو عشُّهما الهانىء وأنّ حياتهما الزوجية ينبغي أن تسير نحو الأفضل.

لم تخلُ بداية حياة ميغ الزوجية من بعض المآخذ الصغيرة وخصوصًا في تحضير بعض أصناف الحلوى. ولكنّها لم تدع مثل هذه الهموم تَشغلها. وكانت تُحدِّث نفسها باعتزاز: «يستطيع زوجي أن يُحضر من يشاء من أصدقائه. سأكون مستعدةً دومًا: بيتٌ أنيقٌ ومرتّبٌ، وزوجةٌ تُشيع البهجة، وطعامٌ لذيذ، وترحابٌ جيّد». وكانت سعادة جون ببشاشة زوجته وحُسن ترتيبها سعادة لا توصف، وكان حريصًا بدوره على ألاّ يُحضر أحدًا من أصدقائه معه إلى المنزل من دون أن يُعلم زوجته بمجيئه.

ذات يوم عاد جون إلى «عشِّ الزوجية» فوجد الباب مغلقًا خلافًا للمألوف، والستائر مسدلةً، وزوجته التي تعوّد أن تستقبله بالتّرحاب غير موجودة. وخشي جون أن يكون قد أصابها مكروه. فطلب إلى صديقه سكوت أن يتفقّدها في الحديقة، فيما راح هو يدور حول المنزل، وقد اشتمّ رائحة سكّرٍ محروق. كانت الفوضى تسود المطبخ، و«الجِلي» المحروق مسكوبًا على الأرض، والسيدة بروك تجهش بالبكاء بحرقة. واندفع جون نحوها ملهوفًا يسألها ماذا حدث. ألقت ميغ بنفسها على كتفيه مستنجدة وقد بدت عليها مظاهر الإعياء والاضطراب. سألها جون بلهفةٍ وهو يُقبّلها بحنانٍ: «ما الذي يُقلِقك حبيبتي؟ هل أصابك مكروه؟»

قالت ميغ وهي تبكي: «نعم. «الجِلي» لا يريد أن يجمد، ولا أعرف ماذا أفعل؟»

عندئذٍ ضحك جون كما لم يضحك من قبلُ وابتسم صديقُه سكوت، في حين هدأت مخاوف ميغ. قال لها جون: «لا تهتمّي لِـ «الجِلي» واقذفي به من النافذة!»

ولكنّ ميغ عادت إلى البكاء عندما علمت أنَّ زوجها قد دعا سكوت إلى الغداء. وعاتبته لأنّهُ لم يعلمها من قبلُ، وقالت إنّها لم تحضِّر شيئًا للغداء لأنها كانت مشغولة بـ «الجِلي».

استاء جون من هذا الوضعِ، فقد كان جائعًا مُتعبًا، كما وَجدَ الفوضى ضاربةً أطنابها والمائدة فارغةً وزوجته معكّرة المزاج. ولكنّه

كتم غيظَهُ لأنّ الجوَّ كان مشحونًا بالتوتُّر. وطلب من زوجته أن تساعده، رغم ما في المطبخ من فوضى، في تحضير بعض «حواضر» المنزل من جبنٍ وخبزٍ ولحمٍ باردٍ ولكن من دونِ «جِلي».

فقدتْ ميغ، المُحْبَطَة والمُتْعَبة، صبرها عند سماعها العبارة الأخيرة. وطلبت من جون أن يصطحب ضيفه ويرحل لأنّه لن يحصل على شيء عندها. وغادرت إلى غرفتها غاضبة.

لم تعلم ميغ ماذا جرى بعد ذلك، ولكنَّ خادمتها لوتي أخبرتْها أنهما أكلا كثيرًا وضحكا كثيرًا، وأن سيّدها أمرها بأن تلقي خارجًا بكلِّ ما له علاقةٌ بتحضير «الجِلي».

أرادت ميغ أن تُعلم والدتها ولكنّ شعورها بالخجل من جرّاء تقصيرها، وحبَّها لجون منعاها. وبدلاً من ذلك تزيّنت لزوجها وأرادت أن تطلب منه أن يسامحها. وعلى الرّغم من أنّ جون كان غاضبًا ومحرجًا أمام ضيفه، إلاّ أنّه كان ينتظر مبادرةً لطيفةً من ميغ.

كانت تجربة ذلك النهار مناسبةً كي يراجع كلُّ واحدٍ منهما موقفه وأن يجد العذر للآخر. وكان كلاهما راغبًا في أن يعتذر من شريكه، ولكنَّ كلَّ واحد منهما تمسَّك بكبريائه. وران بينهما صمت يبعث على الضّيق. وفيما دفن جون وجهه في جريدته، راحت ميغ تُلهي نفسها بالخياطة. وسرح ذهنها وأخذت تتذكّر نصائح أمِّها الثمينة حول طريقة معاملة زوجها. كانت هذه النصائح ترنّ في أذنها واحدةً بعد الأخرى. وتنبّهت ميغ إلى موقفها وراحت تراجع نفسها.

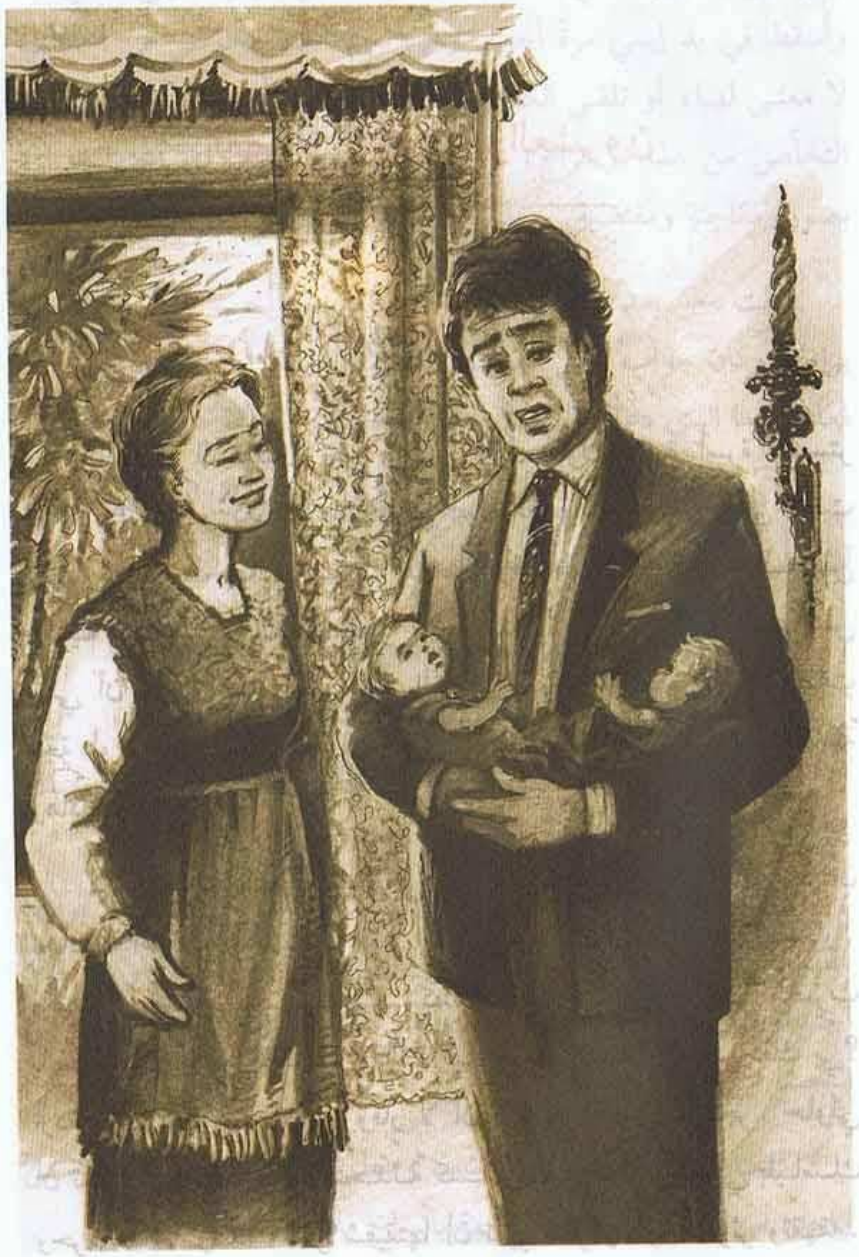

وسرعان ما تغلَّب كلٌّ منهما على كبريائه واستسمح الآخر وقبَّله بودّ.

وكان خير اعتذار من جانب ميغ دعوتها لصديق زوجها السيد سكوت إلى الغداء والترحيب به بحفاوةٍ بالغةٍ.

وتدور الأيام ويعود لوري ذات يومٍ إلى «برج الحمام» فتستقبله حنّة بالزغاريد. ويسأل لوري بلهفةٍ عن الأمِّ الصغيرة فتطمئنه حنّة إليها. وسرعان ما ظهرت جو. كانت تبدو هادئةً ولكنَّ عينيها تبرقان. طلبت من لوري أن يُغمِض عينيه. وأَغمض لوري عينيه، وتَعالَتْ ضحكات الجميع. وما إنْ فتح عينيه ثانيةً حتى وجد بين يديه طفلين رضيعين، واستمرَّ الجميعُ بالضَّحك وضحك لوري معهم.

قالت جو عندما استعادت أنفاسها: «إنّها مداعبة حلوةٌ أليس كذلك؟ فَأَنا لم أشأْ أن أخبرك لأنني أردتها أن تكون مفاجأة».

واعترف لوري بأنّها أكبر مفاجأة في حياته. ويُسرُّ كلَّ السرور عندما يعلم أن التوأم صبيٌّ وبنتٌ. واتفق الجميع، بعد المداولة، على تسمية الصبي «ديميجون» وتدليعه باسم ديمي، والصغيرة «مارغريت» وتدليعها باسم «ديزي».

الفصل السادس والعشرون

دعوات

تجادلت الشقيقتان جو وإيمي حول قبول دعوة أسرة تشيستر لهما. كانت جو كعادتها عازفةً عن قبول الدعوات، ولكنّ إيمي ألحّت عليها كي تصطحبها. وأمضت الأختان وقتًا طويلاً في اختيار الملابس والزينة المناسبة. وانطلقتا أخيرًا لتلبية الدعوة. وفي الطريق، لم تنس إيمي أن تُلفت انتباهَ أختها جو إلى ضرورة عدم إبداء أية ملاحظاتٍ فجّةٍ أو ارتكاب أيِّ تصرّفٍ غريب. فوعدتْها جو أن تكون صامتةً وهادئةً وباردة.

أساءتِ جو التصرُّف بالفعل مع السيدة تشيستر التي حاولت أن تجاذبها أطراف الحديث. فقد التزمت جو الصمت من دون مبرِّر. وهذا ما أغاظ السيدة تشيستر كما أغاظ أختها إيمي التي شعرت بالخيبة لأنّ أختها خذلتها. وقالت لها مُوبِّخةً: «كيف تفعلين ذلك بي؟ أردتُك أن تتصرَّفي باتزانٍ ووقارٍ لا أن تكوني جامدة كالحجر. حاولي أن تكوني اجتماعيةً ومتحدّثةً كسائر الفتيات، واهتمّي بلباسك وحركاتك». وعدتْ جو شقيقتها أن تغيِّر سلوكها وأن تثرثر وتقهقه.

وسرعان ما غيَّرت في سلوكها وتحولت من الإفراط إلى التفريط. وأُسقط في يد إيمي مرةً أخرى وهي تجد أختها تخوض في أحاديثَ لا معنى لها، أو تلقي الكلام جُزافًا. ولم تجد إيمي سبيلاً إلى التخلّص من هذا الإحراج، وخصوصًا عندما اختصرت أختها الزيارة بصورةٍ مفاجئةٍ ومقتضبة. وهذا ما جعلها تخرج من الغرفة مسرعة.

قالت جو بعد أن خرجتا: «ألم أفعل ما يجب على أحسن ما يرام؟» وكان جواب إيمي الساحق: «لا شيء يمكن أن يكون أسوأ ممّا فعلت. ما الذي دعاك إلى مثل هذه الأحاديث الفارغة عن أمتعتي؟»

ـ «لقد كان الأمر مسلِّيًا للجميع. إنّهم يعرفون أنّنا فقراء فلا داعي للتظاهر بأنّنا نملك أشياءَ رائعةً مثلهم».

ـ «لم يكن من داعٍ كي تكشفي لهم فقْرَنا».

بدت جو مرتبكة وقالت: «كيف تريدينني أن أتصرّف؟»

فقالت إيمي باقتضاب: «تصرّفي على سجيَّتك. لقد يئست منك».

كان المكان يعجُّ بالفتيان. وعزمت جو على أن تستمتع بوقتها معهم. أمّا إيمي فقد توجَّهت إلى السيد تودور الذي تكنُّ لأسرته احترامًا كبيرًا. ولكنّ حديثها الممتع مع ذلك الشابِّ النبيل لم يُثنها عن البحث عن أختها جو.

كانت جو جالسةً على العشب وسط ثُلَّةٍ من الفتيان تتحدَّث عن واحدة من مهازل لوري، غير آبهةٍ باتّساخ ملابسها.

قالت لها إيمي وهي تتجنّب إبداء ملاحظةٍ تتعلّق بما فعلته بثوبها ومظهرها:

ـ «لماذا تتجنبين السيّد تودور دومًا؟»

ـ «أنا لا أحبُّ معشره. إنّه يتحدّث عن أهله من دون احترام».

ـ «ينبغي أن تعامليه بطريقة مُهذّبة على الأقلّ، سيكون من اللائق أن تغيّري سلوكك نحوه». فرفضت جو وامتعضت إيمي منها مجدّدًا.

اتّجهت الفتاتان بعد ذلك إلى زيارة عمّتهما السيدة مارش بعد ممانعةٍ من جو. كانت العمّة مارش منهمكةً في حديثٍ مع العمّة كارول عندما دخلت الفتاتان. وسرعان ما استطاعت إيمي بذكائها وحُسن تصرُّفها أن تكسب ودَّهما، وتشاركهما في أحاديثهما. وهذا ما جعل السيدة مارش تثني على حسن ملاحظة إيمي حول زيارتها لأسرة تشيستر. في حين لم ترقْ ملاحظات جو للعمّة مارش والسَّيِّدةِ كارول اللتين راحتا تتبادلان نظراتٍ تنمُّ عن استهجانٍ لتصرُّفات جو وطريقتها في الحديث عن الآخرين أو عن نفسها، خلافًا لشقيقتها إيمي التي كانت تتصرَّف بكثير من اللباقة والكياسة. وهذا ما ترك أجمل انطباعٍ لدى العمّة كارول التي صمّمت على أن تساعد إيمي على تحقيق أمنيتها في السفر إلى روما ذات يوم.

الفصل السابع والعشرون

عواقبُ الأفعال

كانت الدَّعوة إلى معرض السيدة تشيستر بمثابة تكريمٍ وتشريفٍ لكلِّ من يُدعى إليه. وكانت كلُّ سيدةٍ في الجوار تهتمُّ لِحضوره. وقد وُجِّهت الدعوة إلى إيمي في حين لم تُدعَ جو لحضور المعرض. وكان كلُّ شيء يسير على ما يرام قبل يوم واحدٍ من الافتتاح، لولا حدوث أحد أهمِّ المنغِّصات التي لا يمكن تجنُّبها عند التحضير لعملٍ جماعيٍّ كهذا.

كانت ماي تشيستر تشعر بالغيرة لأنّ إيمي كانت مُفضَّلَةً عليها. فالعمل الفنّيُّ الذي قدَّمتْه إيمي كان أفضل مما قدّمت ماي، وتودور الذي كان محطَّ الأنظار رقص أربع مراتٍ مع إيمي في حين لم يرقص إلا مرةً واحدةً مع ماي. هذا بالإضافة إلى شائعةٍ تسرّبت تقول إنّ ابنتي أسرة مارش تسخران منها. وتضافرت هذه العوامل لتدفع بالسيدة تشيستر إلى أن تسحب طاولة عرض رئيسيةٍ من إيمي، أمضت وقتًا طويلاً في ترتيبها على أحسن وجه، وتُعطيها إلى بناتها. شعرت إيمي

بأنَّ وراء الأكمة ما وراءَها وقالت تعبِّر عن استيائها للسيدة تشيستر: «لعلَّك تفضِّلين ألاّ آخذ أية طاولة؟»

قبلت إيمي عرض السيدة تشيستر على مضضٍ بالانتقال إلى منصّةٍ أخرى من دون أن تأبه إلى تذرّعها أو إلى ملاحظات ماي التي حاولت أن تلطِّف موقفها. وشعرت الأخيرة بالاكتئاب والندم وتمنَّت لو أنها لم تدفع أمَّها إلى هذا التغيير. وكذلك شعرت السيدة تشيستر بالندم.

كان الوقت ضيِّقًا لإيمي كي تعاود تحضير منصّتها من جديد، فضلاً عن انشغال كلٍّ من حولها بما يخصُّه. وشعرت إيمي أنّ كلَّ شيء يسير في اتجاه معاكسٍ لرغبتها. ولكنّها صمَّمت على أن تصمد وتثبت جدارتها بدلاً من أن تستسلم للغضب، ووافقتها أمُّها على موقفها هذا وشجَّعتها.

شعرتْ ماي تشيستر في اليوم التالي بأنها لا تستطيع أن تعرض المشغولات الجميلة التي وضعتها إيمي على المنصّة التي كانت لها. واقترحتْ إحدى رفيقاتها اللواتي كنَّ إلى جانبها أن تعيد إيمي معروضاتها إلى المنصّة. سمعتْ إيمي كلامهما وهما تتهامسان ووافقتْ فَورًا على فكرة إعادة معروضاتها، وقامت بذلك بالفعل. وهذا ما أثار إعجاب بعض رفيقات ماي.

استعادتْ إيمي روحَها المعنوية، كما استعادتْ منصّتها جمالها وحسن ترتيبها، بما أضفت عليها يداها الماهرتان من رونقٍ، وكان نهارًا طويلاً وشاقًّا بالنسبة لإيمي التي جلستْ وحيدة خلف منصّتها.

كانت منصّة إيمي الفنية المنصّة الأكثر جاذبيةً في قاعة المعرض، وكان المدعوُّون يتحلقون حولها طوال النهار. وعندما عادت إيمي إلى البيت في ساعة متأخرةٍ من الليل كان الإعياء باديًا على وجهها الشاحب من عناء يومٍ طويل.

تمنَّت إيمي في اليوم التالي أن تعزِّز منصّتها بمزيدٍ من الأزهار كي تصبح أكثر جاذبيةً ولفتًا للأنظار. وقام لوري وأصدقاؤه بمساعدة إيمي في جلب الأزهار الجميلة وترتيبها، وأشاعوا جوًّا من الحيويَّة حول المنصّة.

نجحتْ إيمي في بيع كلِّ ما كان على منصّتها من أزهارٍ، وكان العرض بمثابة نجاحٍ عظيمٍ لها.

بعد أسبوع تلقَّت السيدة مارش رسالةً من العمّة كارول أدخلت السرور على قلبها. ولمّا ألحّت عليها ابنتاها جو وبيث كي تطلعهما على مضمون الرسالة قالت السيدة مارش إن العمّة كارول تريد أن تسافر الشهر المقبل، وهي تريد من إيمي أن تُرافقها.

قالت جو معترضةً، وقد فوجئتْ بالاختيار: «أوه، ماما! إن إيمي لا تزال صغيرةً جدًّا. إنّه دوري أولاً. إنني أتطلّع إلى ذلك منذ وقتٍ طويلٍ، وهي رحلةٌ ستفيدني كثيرًا، فلا بدّ من أن أذهب».

قالت الأمّ: «هذا مستحيلٌ يا جو. إن عمّتك اختارت إيمي تحديدًا. ولسنا نحن من نقرِّرُ عندما تقدِّم لنا عمّتك مثل هذا المعروف».

بكت جو بحرقة قائلة: «هذا ظلمٌ. هذا ظلمٌ. دائمًا هكذا إيمي تحظى بكلِّ المسرَّة، وأنا أقوم بكلِّ العمل».

قالت الأمُّ: «أخشى أن يكون هذا الاختيار من نتائج عملك أنت. لقد شكتْ لي عمَّتُك بعد زيارتك الأخيرة لها مع إيمي من سلوكك الفظّ. وهي تقول هنا في رسالتها إنَّها كانت تخطّط لاختيارك أنت، ولكنّ عباراتك الجافّة جعلتْها تُحْجِمُ عن ذلك. وهي هنا تثني على طباع إيمي الليّنة ولهفتها لمساعدة الآخرين».

قالت جو، وهي تتذكّر ما قالت لعمّتها آنذاك، نادمةً:

«ويحكَ يا لساني البغيض! لماذا لا أتعلّم كيف أُبقيك صامتًا؟»

قالت الأمُّ بأسفٍ: «كنت أودُّ أن تذهبي، ولكن لا أمل في ذلك الآن، لهذا لا تفسدي سعادة إيمي بالنّدم والتأنيب».

طمأنت جو أمَّها، وهي تشعر بغصَّة مؤلمةٍ، أنها لن تفسد على أختها سعادتها، وأنها ستعمل ما في وسعها كي تبدو سعيدةً لسعادتها.

قالت إيمي مستبشرةً بهذه السَّفرة السعيدة:

«إنها ليست مجرَّد رحلةٍ للمتعة يا عزيزاتي. إنّها ستقرّر مستقبل عملي، إذ لو كان لديّ أية موهبةٍ فسأجدها في روما وسأحاول أن أُثبتها».

الفصل الثامن والعشرون

متاعبُ موجعة

أسرَّت السيدة مارش لابنتها جو بأنها قلقة بشأن بيث: «ثمّة شيءٌ ما يَشغل بالها، فهي تجلس وحيدةً فترةً طويلةً من دون أن تكلّم والدها كما تعوّدت أن تفعل. أغانيها حزينةٌ، ونظرة عينيها تدلُّ على شيءٍ غامضٍ لا أعرف كنهه!»

قالت جو: «إنها تكبر، ولهذا فهي تحلم . . لديها آمالٌ ومخاوفُ لا تعرف سرَّ تفسيرها. إن بيث في الثامنةَ عشرةَ من عمرها، ومع هذا فنحن لا نزال نعاملها كطفلة».

أخذت جو تتابع بيث باهتمام فيما هي تحاول أن تبدو مستغرقةً في شؤونها الخارجية. واستطاعت أخيرًا أن تصل إلى ما يكشف عن سرٍّ تبذُلها. كانت تحبُّ الانهماك في الكتابة عند النافذة بعد ظهر يوم السبت، وعينها في الوقت نفسه على جو. ولاحظت جو أن أحدهم مرَّ فجأةً من جانب المنزل وهو يَصْفُرُ وقال: «كلُّ شيء على ما يرام! تعالي الليلة». مالت بيث برأسها وابتسمت وهزَّت به، وتابعت الشابَّ بنظرها حتى غادر المكان.

تابعت جو بنظرها وجه بيث باهتمام ولاحظت كيف انخطف لونها بسرعة وزالت ابتسامتها. كانت هناك دمعةٌ حائرةٌ في عينيها تحاول أن تخفيها.

صُدمت جو بهول ما اكتشفت: إنّ بيث تُحبُّ لوري!

وراحت أفكارٌ كثيرةٌ تعصف بها، ولكنها عزمتْ في نفسها على أمرٍ تفعلُه. كان سلوك لوري مع بيث رقيقًا بشكل خاصّ. لكنّ لوري كان لطيفًا مع الجميع، ولهذا لم يتخيّل أحد أنّه يهتمُّ ببيث أكثر من غيرها. بل إن الانطباع السائد عند الأسرة هو أنّ لوري مُغرمٌ بجو أكثر من أية واحدة أخرى.

أخذت جو تسترجع تصرُّفات لوري في ذاكرتها، وبدأت تكتشف أنه كان يتغيّر نحوها تدريجيًّا، وكذلك كان سلوكه يتغيّر.

وذات ليلةٍ عزمت جو على مراقبة سلوك لوري وبيث عن كثب. ولاحظت أنّهما يتبادلان النظرات الحانية. وتساءلت جو بينها وبين نفسها: لعلّها تستطيع أن تُسعده ويستطيع أن يسعدها؟ وعزمت جو على أن تبتعد، ولكن إلى أين تذهب؟ وجلست على أريكتها المفضّلة تفكّر بالأمر.

ما كادت جو تضع رأسها على الوسادة حتى سمعتْ صوت نحيب بيث. كانت بيث تتألّم وحرارتها مرتفعة. كانت تتفوّه بعباراتٍ يائسةٍ عن مرضٍ لا شفاء منه. وتلاشى صوتها فجأةً فشعرت جو بالذُّعر. وأرادت أن تستنجد بوالدتها ولكنّ بيث منعتْها. وطلبتْ إليها

أن تجلس إلى جانبها وتُمسّد لها جبينها. وشعرت جو أن ثمّة أمرًا يُثقل صدر أختها فطلبت منها أن تفصح عن مكنون صدرها حتى ترتاح. فقالتْ لها بيث: «ليس الآن. لم يحن الأوان بعد». ولكنّها وعدتها بأن تُعْلمَها في الوقت المناسب.

ونامت الشقيقتان جنبًا إلى جنب. وفي الصباح عزمت جو على السّفر، وصارحتْ والدتها برغبتها هذه محتجّةً بالتغيير والتجديد. وقالت إنّها ترغب في السفر إلى نيويورك حيث تستطيع القيام بما طلبته منها السيدة كيرك، وهو تدريس أولادها. كانت الأمُّ قلقةً بشأن غياب ابنتها عن البيت والعمل بعيدًا عنهم، ولكنّ جو طمأنتْها، وأكدّتْ لها أن السفر سيفتح لها آفاقًا جديدةً للكتابة. وعندما ألحّت والدتها على معرفة الأسباب الخفيّة لقرارها، زعمتْ جو أن لوري يتقرّب كثيرًا منها وهي لا تريد أن تتعلّق به في الوقت الحاضر. تفضّل أن يكونا صديقين.

اقتنعتِ الأمُّ بغياب ابنتها بعض الوقت، إذ ربما كان هذا أفضل لها وللوري. وطلبتْ جو أن يبقى الأمر بينهما سرًّا لا يعلم به لوري. «كما أنّ بيث يجب أن تعتقد أنني مسافرةٌ للمتعة، فأنا لا أستطيع أن أتحدّث عن لوري أمامها، وبيث في وسعها أن تواسيه بعد أن أسافر وتشفيه من أفكاره الرومانسيّة».

وافقتِ السيدة كيرك على استقبال جو ووعدتْ بإعداد مكانٍ مناسبٍ لراحتها. وكانت جو تتطلّع بشغفٍ إلى آفاق العمل الجديد وتتوق إلى الالتحاق به في أقرب وقت.

وعندما اكتملت الاستعدادات أخبرت جو لوري بشيء من الخوف عن نيّتها، ولكنّ لوري، رغم دهشته، استقبل النبأ بهدوء.

شعرت جو بارتياح وراحت تكمل استعداداتها بقلب مطمئنّ.

وقبل أن تسافر أوصت جو أختها بيث بشيءٍ واحدٍ، وهو أن تعتني بفتاها، أي بلوري. فأجابتها بيث: «سأعتني به بالطبع، ولكنني لا أستطيع أن أملأ مكانك، ولسوف يفتقدك كثيرًا».

قالت جو: «لن يضيره ذلك. تذكّري فقط أنني تركته في عهدتك».

ووعدت بيث بأن تفعل كلَّ ما في وسعها من أجل أختها، ولكنها كانت مندهشةً من نظرات أختها الغريبة إليها.

وأخيرًا ودّعها لوري قائلاً إنَّ عواطفه معها، وكانت كلماتُ لوري الحنون آخرَ كلمات الوداع.

الفصل التاسع والعشرون

رسائلُ جو ويومياتُها

في شهر تشرين الأوّل كتبتْ جو أوّل رسالة لها من نيويورك، إلى والدتها وبيث، تقول فيها إن لديها أخبارًا كثيرة، وإنّ السيدة كيرك رحّبتْ بها كثيرًا، وهي تشعر وكأنّها في بيتها. وراحت تتحدّث في رسالتها بابتهاجٍ عن تفصيلاتِ حياتها الجديدة، وعملها، وإقامتها.

وتحت عنوان ليلة الثلاثاء، كتبت جو عن رجل ألمانيٍّ تعرّفت إليه في المدرسة يدعى الأستاذ باير، وراحت تصفه لهم وصفًا دقيقًا. وقالت إنها رغم سوء هندامه وعدم وسامته إلا أنّها أُعجبت به. وتحت عنوان ليلة الخميس، قالت جو إنّها أمضت ذلك اليوم بهدوء في الخياطة والكتابة والتدريس في غرفتها الصغيرة، وروت جو لأمّها وأختها كيف تعرفت مصادفة بالسيد باير وتحدّثتْ إليه.

وسألت جو في هذه الرسالة عن تيدي وقالت: «أتُراه مشغولاً إلى هذا الحدِّ بالدراسة بحيث لا يجد وقتًا للكتابة إلى أصدقائه؟!»

وعادت جو فكتبتْ في شهر كانون الأول رسالة خاصّةً إلى بيث

تخبرها فيها عن توطُّد علاقتها بالبروفسور باير، وكيف بدأت تتعلَّم الألمانية على يديه. وقالت جو إنّها تطوّعت لترتيب غرفته التي كانت تعمُّها الفوضى، ولقضاء بعض حوائجه الضروريّة وإنّها سعيدةٌ في تقدُّمها باللغة الألمانية، وبسعة صدر البروفسور باير في تعليمها.

وفي شهر كانون الثاني بعثت جو برسالةٍ إلى أسرتها تتمنى لهم فيها عامًا سعيدًا؛ وتشكرُهم على ما أرسلوه لها من هدايا. وشكرت والدها بشكل خاصٍّ على الكتب التي أرسلها لها. وبمناسبة الحديث عن الكتب توقفت جو مطوَّلاً أمام هدية الأستاذ باير الذي أهداها كتابًا لشكسبير بمناسبة عيد رأس السنة. وكانت جو سعيدةً جدًّا بهذه الهدية التي اعتبرتْها باكورة تأسيس مكتبةٍ خاصّةٍ بها. وكالعادة في رسائلها الأخيرة كان الأستاذ باير محور حديثها واهتمامها.

كما كانت رسالة جو تنطق بالحبور والسرور، والعزم على متابعة العمل بهمّةٍ ونشاط.

الفصل الثلاثون

الصديق الجديد

كانت جو، رغم انهماكها في الجوِّ الاجتماعيِّ الذي أحبَّته والعمل الذي تكسب منه عيشها، تجد وقتًا للكتابة. وكانت ترى أن المال يمنح القوّة، لذلك عزمت على أن تحصل عليهما معًا، لا من أجل ذاتها فحسب، بل ومن أجل من كانت تحبُّهم أكثر من نفسها، كي تسبغ عليهم كل ما تستطيع من وسائل الراحة.

اختارت جو كتابة القصص العاطفية. وذات يوم حملتْ قصةً مثيرةً إلى ناشرٍ يدعى داشوود يعمل رئيسًا لتحرير صحيفة «فولكانو» الأسبوعية. وحرصَتْ على أن تدخل عليه وهي في أفضل لباسٍ، وأن تبدو هادئةً ومتمالكةً أعصابها.

قالت جو، وهي تقدّم مخطوطًا إلى رئيس التحرير طالبةً إليه أن يقرأه، إنّ صديقةً لها رغبتْ إليها أن تعرض هذه القصة للنشر. ولم تنس جو بالطبع أن تخبره أنّ الكاتبة حصلت على جائزةٍ للقصة من قبل. فطلب إليها الناشر أن تترك القصّة لمدة أسبوعٍ لديه، وأن تراجعه بعد ذلك.

كان لقاء جو الثاني مع الناشر أكثرَ راحةً لأعصابها من اللقاء الأوّل. وسرَّها أن يُعلمها بأنَّ قصتها مقبولةٌ ولكنَّها تحتاج إلى بعض التعديل، وأنّ حذف بعض المقاطع يجعلُها مناسبةً تمامًا.

لم تستطع جو أن تعرف مخطوطها من كثرة التشطيب والحذف، ودُهشتْ لأن الانعكاسات الأخلاقية للقصة قد حذفت. وعندما استفسرت الناشر عن ذلك قال لها مبتسمًا: «إن الناس يتطلعون إلى التسلية لا إلى الوعظ، فالأخلاق لا تلقى رواجًا هذه الأيام».

رضخت جو لرغبة الناشر عندما علمتْ أنَّ القصة ستجد طريقها إلى النشر إذا ما عُدّلت، وأنَّ المكافأة مجزية. وقالت للناشر بفرحٍ خفيّ: «هل أخبر صديقتي بأنّكم ستَنشرون قصّتها إذا ما قدّمت واحدةً أفضل». فوعدها الناشر بأنها ستكون موضع اهتمام، وطلب منها أن تنصح لرفيقتها، التي تصرُّ على عدم ذكر اسمها بكتابة قصّةٍ قصيرةٍ ومثيرةٍ، وألاّ تلتفت كثيرًا إلى الجانب الأخلاقيّ.

وسرعان ما اقتحمت جو الأدب العاطفيَّ مُتّبعةً توجيهات الناشر داشوود. وراحت تعاين كلَّ ما حولَها من شخصياتٍ وموضوعاتٍ ومشاهد. واستمرأت هذا العمل، وكانت فكرة اصطحاب بيث إلى الجبال تلحُّ عليها مع الوقت. ولم يعكّر عليها مزاجها سوى فكرة أنّها أخفتْ عن أمِّها وأبيها الطريق الذي سلكتْه.

شعرت جو أنّ تجربتها الساذجة في عالم الأدب تحتاج إلى صقل، وهذا ما دفعها إلى العمل بنشاط لاستدراك ما ينقصها. ودفعها

تعطُّشُها إلى إيجاد مادة لإنتاجها، إلى أن تبحث في الصُّحف عن أخبار الحوادث والوقائع والجرائم، كما كانت تحاول قراءة وجوه كلِّ مَن حولَها. ومع محاولتها إسباغ الكمال على شخصيات أبطالها الخياليين، اكتشفت أن البطل يعيش صميم الحياة، مع كلِّ ما فيه من نواقص، وهو ما يثير اهتمامها. ونصحها الأستاذ باير بأن تهتمَّ بالشخصيات البسيطة والواقعية والجذّابة. وهذا ما دعاها إلى أن تدرس شخصيته بالذّات حيث بدت لها أشبه باللّغز. فقد كان موضع محبة الجميع، رغم أنّه لم يكن غنيًا ولا وسيمًا ولا يتمتع بشخصيةٍ ساحرةٍ، ولكنَّه كان شخصيةً جذابةً يتحلّق الناس حولها كما يتحلّق الفراش حول النار المتوهّجة. وكانت جو، وهي تراقبه، تحاول استكناه سرِّ سحر شخصيّته.

ومع المتابعة الطويلة اكتشفت جو أن السرَّ يكمن في نيّته الطيبة إزاء مَن حولَه، فضلاً عن ذكائه، وهذا ما جعلها تزداد احترامًا له. وعلمت جو أيضًا من إحدى زميلاتها أنّ السيد باير كان أستاذًا ذا مكانةٍ رفيعةٍ في برلين، وإن كان مجرَّد مُدرِّس لغةٍ بائسٍ في أميركا.

وازدادت جو إعجابًا بالبروفسور باير عندما أتيحت لها فرصةٌ لحضور ندوة مختارة، شارك فيها عددٌ من علية القوم وكبار المثقفين. وبُهرت بما دارَ من مناقشةٍ حول الدين وفلسفة الحياة، وبأسماء مفكرين من أمثال كانت وهيغل، إذ لم تكن تعلم عنهم شيئًا. وفي تلك الندوة انبرى باير مدافعًا بطلاقة عن الدين ووجود الله.

وأُعجبت جو بحماسته وروعة منطقه، وبدأت تقتنع منذ ذلك

الحين بأنّ الشخصية القوية الحرة المؤمنة الواثقة من نفسها أفضل من امتلاك المال، أو المرتبة الاجتماعية، أو الجمال، وأن السّيد فريدريك باير ليس إنسانًا عاديًا، بل هو إنسانٌ عظيم.

تعزّزتْ هذه القناعة مع الأيام. وكانت جو تقدِّر مكانته، وتحرص على احترامه، وعلى أن تكون جديرةً بصداقته. واكتشفت جو مصادفة أن الأستاذ باير كان يعرف أنّها تكتب في صحيفة «فولكانو»، ولكنّه لم يصارحها بذلك منتظرًا أن تصارحه هي أولاً، وعندما انكشف الأمر صارحها بأنّه لا يجد مستوى تلك الصحيفة لائقًا، فضلاً عن أن كلَّ ما تنشره هو تفاهات. ودافعت جو عن قصص الإثارة قائلة إن هناك كثيرًا من الأشخاص المحترمين يكسبون عيشهم من كتابة مثل هذه القصص. وأجابها باير بشيءٍ من العصبيّة: «إنّ هؤلاء «المحترمين» يدسّون السمَّ في الدَّسم وهم يكسبون مالاً حرامًا ومن الأفضل لهم أن يكنسوا الشوارع طلبًا للمال فذلك أشرف لهم».

شعرت جو بصدمة، ولكنها حاولت أن تعزِّي نفسها بأنّ ما تكتبُه قد يكون سخيفًا ولكنّه ليس سيّئًا! ما إنْ صعدتْ إلى غرفتها حتى راحت تعيد قراءة كلِّ قصة من قصصها. وسرعان ما شعرت بالاكتئاب بعد أن تجسّمت الأخطاء في عينيها، واقتنعتْ بتفاهة ما كتبتْ، وقالت في نفسها: «ماذا أفعل إذا ما عرفتْ بها أسرتي أو اطّلع عليها السيد باير؟»

ولمعتْ فكرةٌ في ذهنها فجأةً، فحملتْ جميع أوراقها وألقت بها في المدفأة لتحترق. وأقلعت جو عن كتابة قصص الإثارة، وأرادت أن

تتحوّل إلى فنٍّ آخر من فنون الكتابة كالقصص ذاتِ الطابع الأخلاقيِّ أو قصص الأطفال؛ ولكنّها لم تجد قارئًا لها.

وفيما كانت تتفاعل في داخلها عوامل ثورة خفيّة كانت حياتها الخارجية تسير كالمعتاد. ولم تعد تتحدّث في هذا الموضوع مع البروفسور الذي كان يعرف أنّها توقّفت عن الكتابة. وكان يحاول مساعدتها بشتّى الوسائل مبرهنًا على أنه صديقٌ حقيقيّ. ولم تكن جو تعيسةً بالطبع، فمقابل كسلها في الكتابة كانت تكتسب أشياءَ كثيرةً إلى جانب اللغة الألمانية، وتضع الأساس لقصّةٍ مثيرةٍ خاصةٍ بها.

وجاء حزيران وحان الوقت كي تودِّع جو مَن حولَها وتعود إلى البيت. كان الجميع آسفين على فراقها، وعلى وجه الخصوصِ السيد باير، ولكنَّ جو ألحّتْ عليه وهي تودِّعهُ بالمجيء لزيارة أسرتها للتعرّفِ بها وبصديقها المفضّل لوري.

أحسّ السيد باير بغصّةٍ وهو يسمعها تتحدَّث عن لوري بحماسةٍ، وخشي أن يكون أكثر من مجرَّد «صديق مفضَّل». ولكنّه أخفى مشاعره وقال إنه يخشى ألاّ يتمكن من المجيء، متمنِّيًا لصديقها النجاح ولها السعادة. وغادر الغرفة بعد أن صافحها بحرارة.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي هرع باير إلى المحطّة ليكون في وداع جو. سُعِدَت جو بلقائه في المحطّة وهو يحمل لها باقة من أزهار البنفسج، وقالت له قبل أن تَرحل: «لقد انصرم الشتاء، ولم أكتب، ولم أكسب مالاً، ولكنني اكتسبت صديقًا جديرًا بالصداقة وسوف أحافظ عليه مدى العمر».

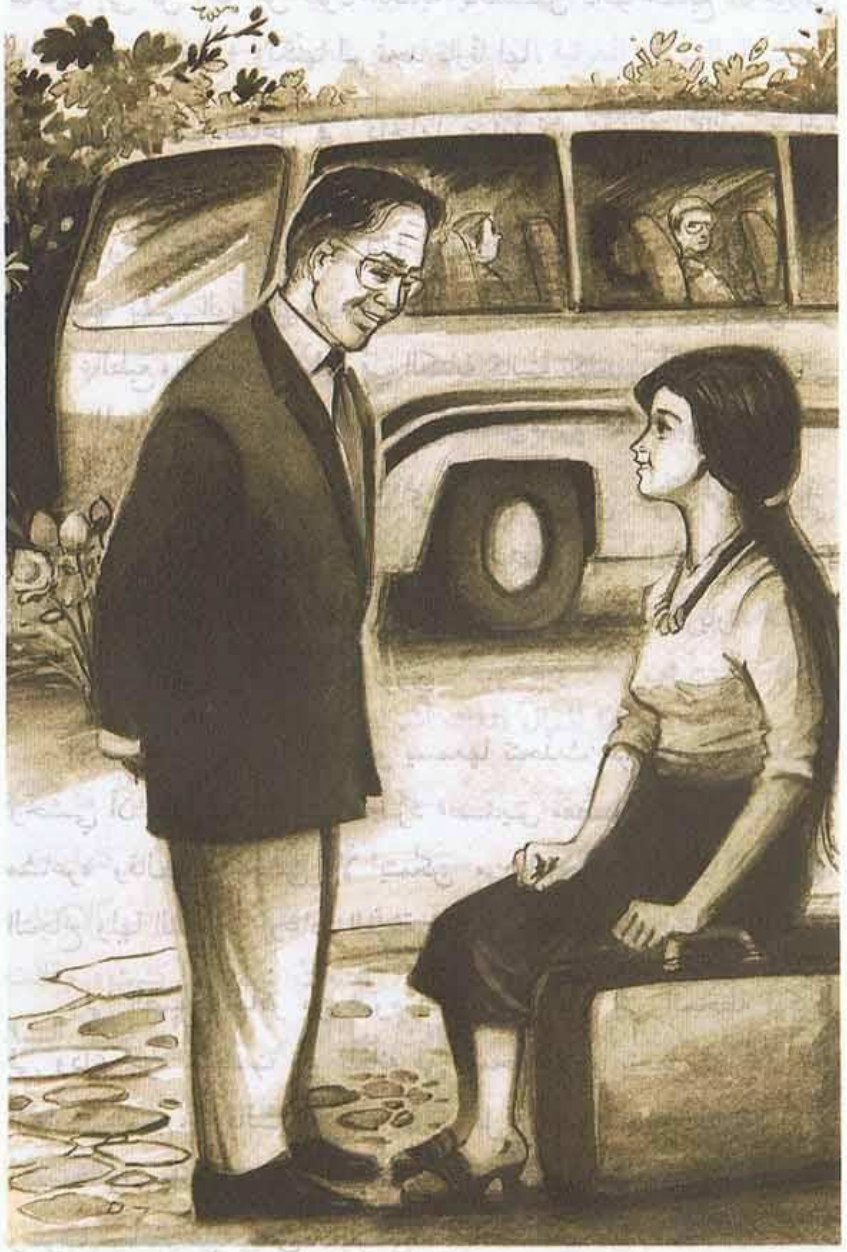

الفصل الواحد والثلاثون

آلامُ الحبّ

كان الجميع حاضرين حفلة تخرُّج لوري بدرجة الشرف: الجدُّ لورنس الذي كان فخورًا بحفيده، والسيّد والسيدة مارش وجون وميغ وجو وبيث. وبعد تناول العشاء، ودَّع لوري جو وشقيقاتِها متوقعًا أن يقابل جو في اليوم التالي، وكانت وعدتْه بالمجيء.

كان القلق باديًا عليهما في بداية اللقاء. وشعرت جو أن لوري يريد أن يبوح لها بشيء يُثقل عليه. وحتى تساعده على الكلام قالت له إنها مستعدة لسماع ما يريد الإفصاح عنه.

وهكذا صارحها لوري بحبه. قال لها إنَّه أحبَّها منذ عرفها، وإنه أراد أن يبوح لها بسرِّه ولكنها لم تُتح له فرصة لذلك. وقال إنّه يريد أن يعرف جوابها لأنّه لم يعد بوسعه الانتظار. وكان جوابها أنّها معجبةٌ به وأنَّه فعل الكثير ليرضيها. واعترفت له بأنَّها حاولت أن تحبَّه، لكنها لا تعرف لماذا لم تستطع ذلك. إنَّها لا تملك أن تغيِّر مشاعرها، ولا يمكن أن تكذب عليه.

أُصيب لوري بصدمة وخيبة أمل شديدة. وشعرت جو بالأسى والرثاء لحاله وأبدت أسفها الشديد. ولكنها لا تستطيع أن ترغم نفسها على شيءٍ لا تقدر عليه. وراحت تربّت على كتفه برقّة والأسى يعتصرها.

وران بينهما الصَّمت. كان الموقف عصيبًا. حاولت جو أن تقطع هذا الصَّمت وهمّت بالكلام، ولكنّ لوري رفض أن يسمع شيئًا عن باير مُعتقدًا أنَّها تحبُّه. وهنا أكّدت له جو أن باير إنسانٌ جيّدٌ وطيّبٌ ولكنَّه مجرَّد صديقٍ، ولا شيءَ غير ذلك.

وحاولت جو أن تخفِّف من لوعة لوري الذي جثا على ركبتيه أمامها، كما حاولت أن تُهدِّىء من روعه. وقالت له بهدوءٍ إنّ أحدهما لا يناسبُ الآخر، فكلاهما حادُّ الطباع، وسيكون من الحماقة أن يرتبطا بالزَّواج، وطلبت إليه أن يكونا صديقين فحسب. ولم تفلح توسُّلات لوري في تغيير موقفها، وتمنَّت له الفتاةَ المناسبةَ التي تكون أهلاً لهُ. هنا فقَدَ أعصابه وتفوَّه بكلماتٍ أزعجتها ودفعتها إلى صدِّه، وتحول الموقف بينهما إلى ما يشبه المشاحنة.

قال لها لوري: «ستندمين ذات يومٍ يا جو». وابتعد عنها متأثِّرًا بما جرى.

شعرت جو لبرهة بأنّ قلبها يكاد يتوقّف خوفًا من أن يفعل لوري شيئًا بنفسه، وعادت أدراجَها إلى البيت وهي تفكّر بما يمكن أن تقوله للسيِّد لورنس كي يعالج الموقف. وعندما وصلتْ، صارحتهُ بكلِّ ما حدث وراحتْ تجهش بالبكاء.

عاد لوري إلى المنزل متعبًا فوجد الجدَّ الذي تظاهر عند لقائهما بأنّه لا يعرف شيئًا. أما لوري فقد توجَّه إلى البيانو وراح يعزف «السوناتا الحزينة» كما لم يعزفْها أبدًا من قبل.

وأخيرًا صارح الجدُّ حفيده مُرَبِّتًا على كتفه بحنان بأنَّه عرف كلَّ شيءٍ من جو. كان الموقف صعبًا يدعو إلى التأمُّل والتفكير. وبعد لحظاتٍ قليلةٍ، اقترح عليه جدُّه أن يغادر البلاد لفترة من الوقت نشدانًا للسلوى. كما اقترح عليه أن يسافرا معًا إلى حيث يوجد لديه بعض الأعمال التجارية التي تحتاج إلى متابعة، مؤكِّدًا أنه لن يُثقل عليه بحيث يستطيع أن يذهب إلى أيِّ مكان يشاء.

رضخ لوري لرغبة جدِّه، وجاءت لحظة الفراق. ودّع لوري جميع أفراد أسرة مارش، بمن فيهم جو. كان الوداع قصيرًا ومقتضبًا. غادر لوري وابتعد ولم ينظر إلى الخلف، وهنا أدركت جو أنّ الفتى لن يعود أبدًا.

الفصل الثاني والثلاثون

سرُّ بيث

عندما عادت جو إلى البيت فوجئت بالتبدُّل الذي طرأ على بيث. إنه ذاك النوع من التبدّل الذي لا يحسُّ به إلا من يغيب عنها طويلاً. كانت هناك نظرةٌ شفّافةٌ غريبةٌ في عينيها.

واعتقدت جو بأنَّ رحيلَ لوري أعاد إلى أختها ذلك القلق الغامض، فاقترحت عليها أن يقوما برحلةٍ إلى الشاطىء للترفيه عن النفسِ، فوافقتها بيثُ الرأي.

كان هناك سرٌّ ما يعتمل في نفس بيث ويثقل على صدرها وتريد أن تبوح به لجو. وذات يومٍ اقتربت بيث من أختها وهي مضطجعةٌ، وقالت: «عزيزتي جو، أنا سعيدةٌ لأنَّك تعرفين. حاولت أن أخبرك فلم أستطع». وتابعت وكأنّها تريد أن تواسي شقيقتها: «عرفت ذلك منذ زمن. لقد اعتدت ذلك المرضَ الآن، ولم يعد من الصَّعب أن أتحمَّله..».

انتاب جو شعورٌ بالسعادة لأنَّ لوري لم يكن له شأنٌ في سبب

قلق أختها. وسألتها: «أهذا كلُّ ما يقلقك؟» قالت بيث: «نعم، كنت أراك قويَّةً ومفعمةً بالسعادة، وأشعر أنني لا أستطيع أن أكون مثلك».

ـ «ولماذا لم تخبريني بذلك يا بيث؟ وكيف تحمَّلت العناء وحدك؟ كيف تحمَّلت هذا الشعور بالوحدة؟»

ـ «كانت أمّي مشغولةً بميغ، وإيمي بعيدة، وحسبتُ أنَّك سعيدةٌ مع لوري، فلم أُرِدْ إزعاجك».

ـ «وأنا كنت أظنُّ أنك تحبّينه يا بيث، وهذا ما حملني على الابتعاد».

نظرت بيث بدهشةٍ إلى جو التي ابتسمَت، رغم ألمها، وقالت:

ـ «إذن، فأنت لم تفكّري في ذلك يا عزيزتي؟»

ـ «كيف يسعني أن أحبَّه يا جو وهو مغرم بك؟ إنني أحبُّه فعلاً، لأنّه كان طيّبًا معي دومًا، ولكنّه لم يكن أكثر من أخٍ بالنسبة لي».

وهنا طلبت جو من شقيقتها أن تقاوم الضَّعف وتتغلَّب على المرض، وقالت إنها ستفعل كلَّ ما في وسعها كي تقف إلى جانبها، وراحت تبكي بحرقةٍ، وتعانقت الأختان بحرارة.

كان انفرادهما فترةً من الوقت مناسبةً جيدةً كي تصارح كلُّ واحدةٍ منهما الأخرى بما يجول في خاطرها، وكي تشدَّ جو من أزر أختها وتبعدها عن الشعور بالضَّعف والوحدة.

الفصل الثالث والثلاثون

انطباعاتٌ جديدة

كانت الساعة الثالثةَ بعد الظُّهر، وكان مشهد نيس رائعًا في ذلك اليوم المشمس، فـ«الكورنيش» كان يحفل بكلِّ مظاهر البذخ والبهجة والموضة والأشجار الوارفة والأزهار النَّضرة. كما كانت نيس ملتقى الناس من كلِّ أمّةٍ ولسان. وفي يوم عيد الميلاد كان لقاء إيمي مع لوري في نيس.

صاحت إيمي: «أوه لوري! أهذا أنت حقًّا؟ كنت أظنُّ أنَّك لن تأتي». فقال لوري: «لقد تأخرت ولكنّي وعدتك أن أمضيَ يوم الميلاد معك، وها أنذا». وجرى بينهما حديثٌ طويلٌ. بدا لوري أكثر وسامةً، ولكنَّه كان متعبًا قانطًا، ولم تعرف إيمي السّبب. كانت إيمي تريد أن تعرف كلَّ شيءٍ عن حياة لوري الجديدة ولاحظت أنَّ ثمة تغيُّرًا طرأ على سلوك لوري وشخصيته ولكنَّها لم تعرف ما كان سبب هذا التغيّر.

كان لدى كلٍّ منهما الكثير من الأسئلة والكثير من الأمور التي يودُّ الواحدُ منهما أن يتحدَّث عنها للآخر. وركبا معًا. وتحدّثا طويلاً. وتركها لوري آملاً اللقاء ليلاً ليسهرا سهرة الميلاد.

تزيّنت إيمي في تلك الليلة بأجمل زينة واعتنت باختيار لباسها وحليّها وبدت في غاية المرح والرشاقة وهي تختال في قاعة الفندق بانتظار لوري. ولمحها لوري عن بعدٍ وهي واقفةٌ أمام نافذةٍ بعيدةٍ، فبدتْ له في وقفتها كإحدى آلهات الرومان. اقترب منها وحيّاها بإعجابٍ، فردّت له التحيَّة وهي تبتسم.

لفتت إيمي الأنظار في تلك الليلة وهي تستند إلى ذراع لوري. وكانت مستبشرة ترغب في الرقص وفي الاستمتاع بوقتها. وعندما عزفت الموسيقى المقطوعة الأولى تحرّكت أطرافها تعبيرًا عن رغبةٍ في الرّقص، فتقدّم منها لوري ليراقصها. قالت له إيمي: «أستطيع أن أمنحك رقصةً بعدما أرقص مع الكونت». وراحت تُراقص الكونت غير عابئةٍ بلوري وكأنّها تريد أن تلقّنه درسًا.

نجحت خطّة إيمي في إثارة مشاعر لوري. فراح يجاملها بعدما انتهت رقصتها. وكان سعيدًا بتلبية طلباتها. وسألها بنظرةٍ معجبة: «أين تعلّمتِ كلَّ هذه الأشياء؟» وراح يشير إلى أسلوبها في التصرُّف وهندامها وطريقة تعاملها.

فقالت إيمي متجاهلةً قصْده: «حياة الغربة مدرسةٌ للإنسان. إنني أدرس بمقدار ما ألهو. أمّا عن لباسي فهو بسيط، وقد اعتدتُ أن أصنع معظم أشيائي بنفسي». ازدادت إيمي مكانةً في نفس لوري واحترامًا. وأسعدَ إيمي أن تجد لوري يكرِّس وقته لها طوال السهرة. لقد خرج كلاهما بعد ذلك اللقاء بانطباعاتٍ جديدةٍ عن الآخَر.

الفصل الرابع والثلاثون

لورنسُ الكسول

ذهب لوري إلى نيس وهو ينوي أن يقيم أسبوعًا، ولكنَّه أقام شهرًا. لقد أنساه وجود إيمي الشعورَ بالغربة. كان كلاهما يرتاح للقاء الآخر، وكانا يمضيان معظم الوقت معًا.. في المشي أو ركوب الخيل أو الرقص. وفي غضون ذلك كان كلٌّ منهما يزداد اكتشافًا للآخرِ وتقرُّبًا منه.

قالت إيمي للوري: «أنا ذاهبةٌ إلى فالروزا كي أرسم، فهل تذهب معي؟ سآخذ العربة الصغيرة، ويتولّى بابتيست قيادتها».

وعبَّر لوري عن سروره لمرافقتها. وركبا العربة وانطلقا. كانت فالروزا مدينةً خلابةً بطقسها الصيفيِّ الدائم، وورودها المنتشرة في كلِّ مكانٍ، وجدرانها البيضاء.

قالت إيمي وهي تقف عند شرفة المنزل الذي توجّها إليه: «إنها فردوس شهر العسل أليست كذلك؟ هل شاهدت في حياتك مثل هذه الورود؟» فاندفع لوري يقطف لها بعض الأزهار.

اضطجع لوري على الأرض ليتشمَّس. وكانت إيمي تتأمَّل ملامحَه وتستشفّ نظرةً فيها معاني المرارة والألم والسُّخط والندم. قالت له إيمي: «لقد تغيَّرت..» ولم تكمل. أحسّ لوري بقلقها الودّيِّ نحوه وقال لها: «أنا على ما يرام يا سيدتي». قالت إيمي بلهجةٍ ودّيّةٍ: «لا تمكث في الشمس. تعالَ واستلقِ على العشب هنا».

أطاعها لوري وقال وهو يرمي بنفسه على العشب: «ماذا عندك من الأسرار!»

قالت له إيمي: «ليس عندي ما أقوله، ابدأ أنت».

سألها لوري متى تبدأ عملها الفنّي. فأجابته إيمي بحزم إنها لن تعمل في ميدان الفنّ بعد اليوم، فقد انتزعت منها روما كلَّ غرورها. لقد تخلّت عن آمالها الحمقاء بعد أن رأت الروائع.

وتساءل لوري بدهشة: «لماذا وأنت لديك الطاقة والموهبة؟»

أجابت إيمي: «الموهبة لا تعني العبقرية. ولا تستطيع أيُّ قدرةٍ أن تأتي بها. أنا أريد أن أكون فنّانةً عظيمةً أو لا أكون..».

«وماذا تنوين أن تفعلي الآن؟»

«أصقل مواهبي الأخرى، وأريد أن أكون مفخرةً في المجتمع إذا أتيحت لي الفرصة».

سألها لوري محاولاً أن يسبر غَوْرها: «ألهذا السبب يأتي فِرِد ڤون إلى هنا؟»

وهنا لاذت إيمي بالصَّمت.

وتابع لوري سؤاله عن طبيعة علاقتها بفْرِد، وعن صحّة ما تردّد من شائعاتٍ حول علاقتهما، وهل كانت تقبل به إذا ما تقدَّم لخطبتها. فأجابته بأنّ هذا ممكن. ودافعت عنه حين وصفه لوري بالرَّجل غير المناسب لها، وقالَتْ له إنه غنيٌّ ونبيل وطباعه مريحة.

شعرت إيمي بأنّ لوري قد اغتاظ من حديثها، ولكنها عزمت على متابعة الحديث معه بطريقةٍ استفزازيةٍ، وقالت له إنها وصديقتها يصفانه بلورنس الكسول. وتابعت قائلةً: «إنني أكره ما تفعل».

انقضّ لوري وسألها: «أنا كسولٌ! لماذا؟»

ـ «لأنّك مع كلِّ فرصةٍ تتاح لك كي تكون جيّدًا ومفيدًا وسعيدًا، أراك عكس ذلك، وأنت تُضيع وقتك عبثًا بأشياءَ تافهةٍ، وتهتمُّ بسفاسف الأمور». وتابعت بلهجةٍ هي أقرب إلى التقريع: «ومع ما أوتيتَ من مال وموهبةٍ ومركزٍ وصحّةٍ ووسامةٍ فإنّك تُضيِّع وقتك سدًى، بدلاً من أن تكون الرجل الذي ينبغي أن تكونَهُ».

لم يأخذ لوري ما قالته له إيمي على محمل الجدّ. وشعر بما تعانيه إيمي من مرارةٍ وبصدقِ ما تقول، فاقترب منها، ووعدها بأنَّه سيكون عند حسن ظنِّها.

شعرت إيمي أنها اشتطَّت قليلاً في تقريعها لوري، وحاولت أن تخفِّف من لهجتها، وربما سرّها ضمنًا ألاّ تجد في يديه أيَّ خاتم سوى الخاتم البسيط الذي كانت أختها جو قد أهدته له. وقالت له

كأنّما تحاول أن تراضيه: «أعرف يا لوري أنك لو لم تكن أرقَّ رجلٍ في العالم لما تحمّلتَ كلامي، فنحن فخورون بك أبدًا».

تطرَّق الحديث بينهما إلى جو. وأثار هذا الحديث شجون لوري وآلامه، فقال لإيمي بلهجةٍ مرّةٍ: «هل تعتقدين أنَّ جو يمكن أن تزورني كما تفعلين أنت الآن؟» فقالت له إيمي: «أجل، إذا رأتك على هذه الحال. إنّها تكره الكسالى، فلماذا لا تقوم بشيءٍ رائعٍ يجعلها تُحبُّك؟»

قال لوري وهو يضع رأسه بين يديه: «قولي ما تشائين. إن كنت قد فشلت فلأنَّ جو لم تبادلني الحبّ».

ـ «أنت لم تفشل. باستطاعتك أن تفعل شيئًا إذا حاولت. حاول وسترى. ولا تدع حبَّك يفسد حياتك».

ران الصّمت بينهما لبضع دقائق. وكانت من لوري التفاتة ليرى أنَّ إيمي كانت ترسمه. فقال لها ساخرًا: «أهذه صورتي!» فأجابته إيمي: «إنها صورتك كما أنت الآن».

وتناولت صورةً قديمةً كانت قد رسمتها له عند بداية تعرُّف الأسرة به، وجعلته يقارن بينهما حتى يدرك الفارق بنفسه.

وتضاحكا.. وعادا إلى البيت.. وافترقا.

وفي الصباح التالي تلقَّت رسالةً من لوري، بدلاً من المكالمة المعتادة، تركت في نفسها غصّة. أعلمها في الرّسالة أنّ «لورنس الكسول» سيلتحق بجدِّه، وتمنّى لها السعادة في فالروزا مع فْرِدْ ڤون.

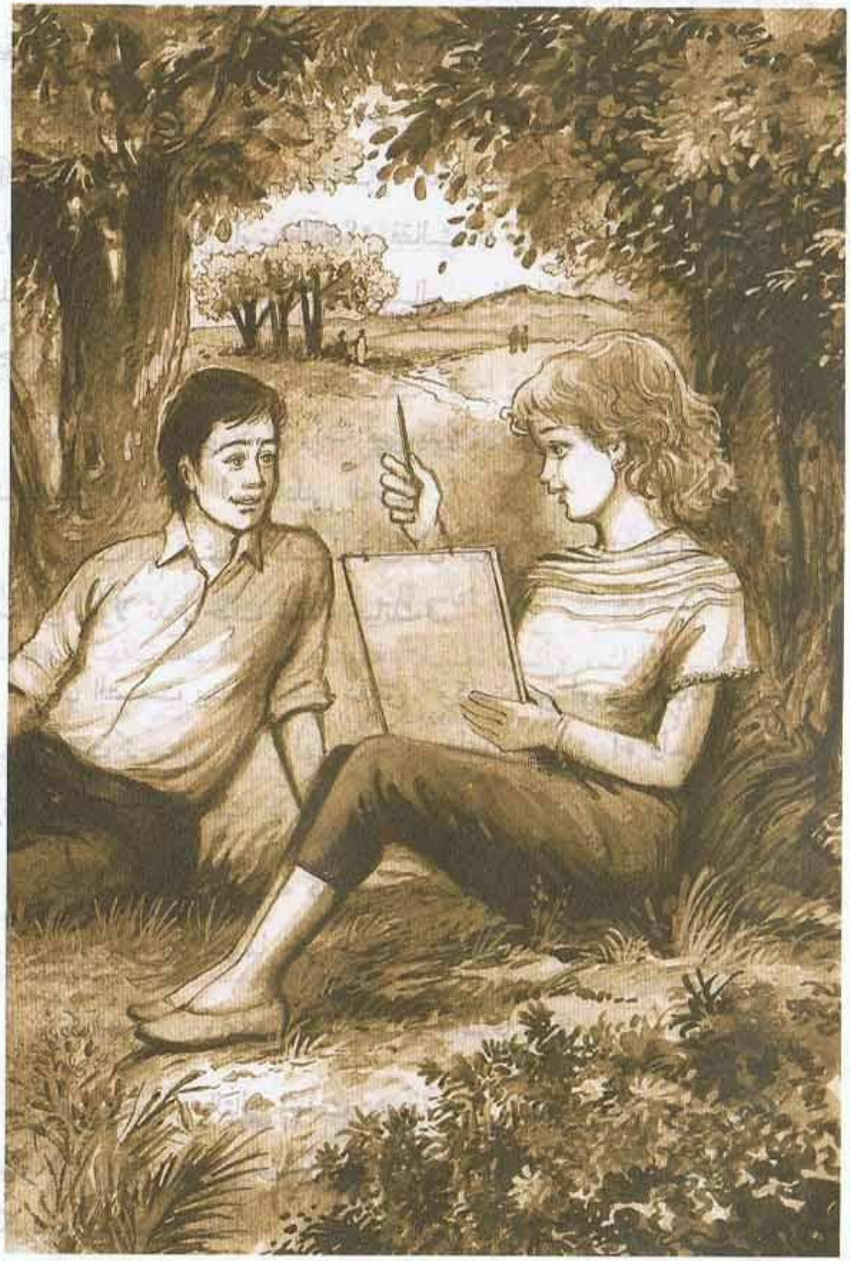

الفصل الخامس والثلاثون

وادي الظلّ

بعدَ الصَّدمة الأولى، وبكلِّ مودَّةٍ ومحبَّةٍ، حاول كلُّ فردٍ في الأسرة أن يساعد الآخر في أوقات الشدَّة. لقد وضعت الأسرة أحزانها جانبًا وراح كلُّ فرد يضطلع بدوره لجعل السنة الأخيرة لبيث سنةً سعيدة.

أُعدّت أفضل غرفة في المنزل لبيث، وكانت تضمُّ كلَّ ما ترغب فيه: أزهارها المفضَّلة، لوحاتها، البيانو الذي تعزف عليه، أشغالها، وقططها. وكان الجميع يسعى لإسعادها.

في هذه الغرفة كانت ترقد بيث ساكنةً، ولكنَّ أصابعها الرقيقة لم تتوقف عن العمل. فقد كان يُبهجها أن تضع أشياءَ صغيرةً لتلاميذ المدرسة الذين يمرّون بالقرب من نافذتها جيئةً وذهابًا. وكانت سعيدةً بالعناية التي تلقاها من كلِّ مَن حولها، وخصوصًا عندما يتجمّعون في غرفتها المشمسة. وكأنّ هذه السكينة التي ملأت نفوس أفراد الأسرة كانت فترة تمهيدٍ لاستقبال الساعات الصعبة المقبلة، ذلك أن بيث كانت تزداد ضعفًا يومًا بعد يوم بحيث لم تعد تقوى حتى على حمل

الإبرة، وتنزعج من الأصوات الصادرة بين حين وآخر، وكانت صرخات الاستغاثة من الألم تمزّق قلوب أهلها.

قالت بيث لأختها جو: «أشعر أنني أقوى عندما تكونين إلى جانبي». ومنذ ذلك الحين لم تعد جو تفارقها. كانت تنام على الأريكة بالقرب منها، وتقوم بكلّ ما تحتاج إليه من الرعاية. وكانت سعيدةً كل السعادة بما تقوم به من أجل أختها. ولكن بيث كانت صامتةً دومًا حزينةً دومًا، وكأنّما تحاول أن تُبعد نفسها عن حياتها القديمة وتُهَيِّىءَ نفسها لتقبّل حياةٍ جديدةٍ، من خلال الدعوات والصلوات والموسيقى التي أحبّتها.

ولّت أيام الربيع. وباتت السماء أكثر إشراقًا والأرض أشدَّ خضرةً، وفاحت الأزهار وعادت الطيور لتقول وداعًا لبيث التي كانت تتشبَّث بأيدي مَن حولَها كطفل وديعٍ، فيما يقودها أبوها وأمُّها بحنانٍ عبر وادي الظلّ ويسلّمانها إلى الله.

وفارقت بيث الحياة من دون وداعٍ، وقد ارتسمت على وجهها الرقيق نظرةُ حبٍّ بريئة.

وفارقها أهلها بالدموع والصلوات، والحزن يعتصر القلوب. كان وجهها، وهي مُسجّاةٌ على فراش الموت في طريقها إلى رقدةٍ طويلةٍ بلا ألم، وجهَ ملاكٍ طيّب. كان الموت راحةً لبيث الحبيبة، وهذا ما خفَّف الألم والعذاب عن أسرتها.

لقد اختار الله بيث إلى جواره، وها هي ترقد بسلامٍ، وقد ارتسمت السَّكينة على وجهها.

الفصل السادس والثلاثون

السلوانُ والحبُّ المتجدّد

كان لمحاضرة إيمي مفعولُها الجيّد على لوري وإن لم يستوعبها إلا بعد حين. فقد عاد إلى جدّه وكرّس نفسه له بضعة أسابيع. واقتنع لوري بينه وبين نفسه أنه كان أنانيًا وكسولاً حقًّا. وشعر بأنه إذا كان قد خسر حبَّ جو، إلاّ أنّه يستطيع أن يكسب احترامها وإعجابها. وفكّر لوري في تعلُّم الموسيقى، فذهب إلى فيينا لهذه الغاية، ولكنَّه وجد طريق الموسيقى طويلاً. وفكّر بالمسرح، وأعرض عنه. وتساءل عمّا يمكن أن يختار، وكان عليه أن يجيب عن هذا السؤال الصّعب.

كان لوري يعتقد أن نسيان جو قد استنفد كلَّ طاقته، لكنَّه اكتشف مع الوقت أنّ عاطفة المراهقة المشبوبة قد تحوَّلت إلى عاطفةٍ هادئةٍ، ومودَّة أخويّةٍ لا تشوبها شائبةٌ وتدوم أبدًا.

انشرحتْ نفسه عندما لمعتْ في ذهنه فكرة المحبة الأخويّة. وابتسم وهو يُحدِّق في صورة موزارت وقال: «إنه رجلٌ عظيمٌ، فعندما لم يحصل على إحدى الأختين كان قانعًا سعيدًا بالأخت الأخرى». ورغم ما توصّل إليه من قناعةٍ إلاّ أنَّ صورة جو ظلّتْ تداعب خياله.

وكتب إلى جو يستطلع رأيها في العودة ليَعيشا معًا فأجابتْه جو بالرَّفض لأنَّ حزنها على بيث يملأ حياتها، ورجته أن يَنْشُد السعادة مع واحدة غيرها، كما رجته ألاّ يُخبر إيمي بما حدث لبيث. وكان على لوري أن يراسل إيمي باستمرار كي لا تشعر بالوحدة أو القلق.

وصلَتْ رسالةُ لوري إلى إيمي، فسارعَتْ إلى الرّدّ برسالةٍ بعثت بها إليه تقول فيها: إنّها تُحِسُّ بالغربة فعلاً، وتحتاج إلى من ينقذها من وحدتها، وإنها قد أنهت علاقتها بفْرِد معيدةً كلمات لوري: «إن فرِدْ إنسانٌ جيّدٌ ولكن ليس بالرجل المناسب لك أبدًا». وظلّت هذه العبارة تتردَّد في ذاكرتها ومعها صورة لوري وهو يردِّدها أمامها.

لم تعد إيمي تلقي المحاضرات على لوري، بل باتت تستأنس برأيه في جميع الأمور. وكانت تهتمُّ بكلِّ ما يفعل، وتواظب على مراسلته. وتابعت هواية الرَّسم التي كانت تستغرق جانبًا كبيرًا من وقتها. هذا الاستغراق جعل العمَّة تعتقد أنّ إيمي حزينة على رفضها لطلب فْرد يدها، ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ ما كان يشغل بال إيمي هو شيءٌ آخر، وهو أن يعلم لوري أنّ فْرد قد غادر إلى مصر.

عندما وصل الخبر الحزين عن بيث إلى إيمي كانت قد سافرت إلى سويسرا عن طريق جنوة والبحيرات الإيطالية، ولكنَّها كانت تشعر بالضّجر والأسى وتتوق إلى العودة إلى الوطن. وكانت تتطلَّع كلَّ يومٍ إلى البحيرة بتوقٍ وهي تنتظر لوري كي يأتي ليواسيها.

كان لوري في ألمانيا. وما إن وصلته الرسالة حتى سارع بالسَّفر إلى حيث تقيم أسرة كارول ليقابل إيمي.

في حديقةٍ غنّاءَ عند تخوم البحيرة كانت إيمي تجلس حزينةً قلقةً تفكِّر في بيث وفي لوري. ولم تسمع خطاه وهو يقترب منها عبر ممرّات الحديقة. انتصب أمامها لوري وهو يحدِّق فيها وكأنّه يراها لأوَّل مرة. وعندما رفعت ناظريها وشاهدته اندفعت نحوه غير مصدِّقةٍ وهي تقول: «أوه! لوري.. لوري. كنت أعرف أنك ستأتي». وقف كلاهما صامتًا لبرهة. كان قلباهما مفعمين بالسَّعادة. أحسّت إيمي أنْ ما من إنسانٍ يمكن أن يواسيها ويشدَّ من أزرها مثل لوري، وشعر لوري بدوره أنّ إيمي هي الفتاة الوحيدة في العالم التي يمكن أن تحتلَّ مكان جو وتسعده. ولم يفصح أحدهما للآخر بمكنون قلبه، ولكنّ كليهما كان يحسُّ بهذه الحقيقة.

قالت إيمي: «إنَّها لمفاجأة أن أفتح عينيَّ فأراك في وقتٍ بدأتُ أخشى ألاّ تأتي».

فقال لوري: «لقد جئتك لمّا علمت بالخبر. ليتني أستطيع أن أقول شيئًا لأواسيك بوفاة العزيزة الصغيرة بيث..» واختنقت الكلمات في حلقه ولم يجد سوى أن يعصر يدها بحنانٍ.

وسارا معًا في أرجاء الحديقة التي تناثر فيها العشّاق. وشعرت إيمي بأنها خلّفت وراءها مشاعر الوحدة والأحزان.

أمضى الاثنان أوقاتًا مليئةً بالبهجة والسعادة، وشعر لوري باستحالة حبِّ امرأة أخرى غير إيمي. ولم يكن بحاجةٍ إلى أن يفصح لها عن حقيقة مشاعره، فقد أحسّت بذلك من تلقاء نفسها وأعطته

الجواب الذي كان ينشده. وكانت تشعر بأنَّ حبَّهما سيُسعد كلَّ مَن حولَهما حتى جو.

آثر لوري أن يُرجىء الإفصاح عن حبّه حتى اللحظة المناسبة. وتخيّل أنّ هذه اللحظة ستكون في حديقة القصر تحت ضوء القمر، ولكنَّ اللحظة السعيدة جاءت في وضح النهار وهما يجدِّفان في ماء البحيرة. وسرعانَ ما شعرا أنَّهما في قمة السعادة وهما يتوصَّلان إلى هذا القرار المشترك وهما يجدّفان معًا في عباب مياه الحياةِ المشتركة.

الفصل السابع والثلاثون

الكتابةُ تُذهبُ الوحدة

كان من السّهل على جو أن تعدَ بنكران الذّات في الوقت الذي كانت أختها المريضة بيث توشك أن تودِّع الحياة. ولكن بعد أن خبا ضوء الحياة لم يعد لجو سوى الوحدة والحزن. كيف يسعُها أن تشيعَ البهجة في مَن حولَها وقد رحلتْ بيثُ إلى الدار الآخرة؟ ولم تجد جو ما تشغل به نفسها. وأصابها اليأسُ وهي تفكّر كيف ستمضي حياتها في هذا البيت الهادىء وهي تقوم بالواجبات الرّتيبة المملَّة التي لا تنتهي. وشعرت أنَّها لا يمكن أن تستمرَّ على هذه الوتيرة، وأنّها قد تُقْدم على عمل يائسٍ إذا لم يساعدها أحد.

وطلبتْ إلى والدها ذات يومٍ أن يحادثها كما كان يفعل مع بيث لأنها في أمَسِّ الحاجة إليه. فعانقها والدها بحنانٍ قائلاً أن لا شيء أعزُّ عليه من أن يقف إلى جانبها.

وراحت تبُثُّ والدها أحزانها وتحدِّثه عن خيبات أملها، وأعطتهُ ثقتها كلَّها، وأعطاها بدوره كلَّ ما تحتاج إليه من مساعدة. وهذا ما منح كليهما راحة النفس.

وأخذت جو تُعوِّد نفسها شيئًا فشيئًا أعمال المنزل، وبصورةٍ لا شعوريةٍ وجدتْ نفسها تقوم بكل ما كانت بيث تقوم به.

سألتها أمُّها ذات يوم: «لمَ لا تكتبين؟ لقد كانت الكتابة تُدخل السعادة على قلبك دومًا».

ردَّت جو بشيءٍ من القنوط قائلة إنها لا تجد رغبةً في الكتابة ولا تجد شخصًا يهتمُّ بما تكتب. وشجَّعتها أمُّها على الكتابة قائلةً: «حاولي أن تكتبي يا غاليتي وأنا واثقةٌ أنّ الكتابة ستُدخل السرور على قلبك».

كتبت جو قصّةً لم تكن تتوقَّع أن تلقى ما أصابته من نجاح. وتلقّت الكثير من رسائل الإعجاب من القرّاء والأصدقاء، ممّا أثار دهشتها، فراحت تتساءل عن سرِّ إعجاب الناس بما كتبت. وجاء الجواب البسيط من والدها: «السرُّ يكمن في ما تحتويه من صدقٍ. إنّك تكتبين من دون أن تفكّري بالشهرة أو المال يا بنيّتي، وتصبّين أحاسيسك في كتابتك. لقد مرّت الأيام الصّعبة وجاءت الأيام الحلوة. ابذلي ما في وسعك وكوني سعيدةً كما نحن سعداء الآن بنجاحك».

تأثَّرت جو بكلام والدها وقالت إنَّها مَدينةٌ بنجاحها له ولأمِّها ولبيث.

عندما علمت السيدة مارش بخطبة إيمي ولوري خشيتْ على جو من الصَّدمة، ولكنّ مخاوفها سرعان ما تبدَّدت عندما وجدت أنَّ جو

لم تتأثر كثيرًا. واعترفت الأمُّ بأنَّها كانت تتوقَّع مثل هذا الحدث، بل وتتمنّاه.

أكَّدت جو أنَّها سعيدةٌ لخطبة أختها ولأنَّها عرفت كيف ينبغي أن تعامله، ولكنّها شعرت في قرارة نفسها بغصّةٍ، وعاودها شيءٌ من الحزن. وحين تذكَّرت كلماتٍ كتبها لها البروفسور عندما كانت في منزل السيدة كيرك، أحسّت برغبةٍ شديدةٍ في البكاء.

الفصل الثامن والثلاثون

مفاجآتٌ حُلوة

كانت جو تضطجع على الأريكة وحيدةً في الغسق، تنظر إلى المدفأة وتفكّر. إنّه وقتها المحبَّبُ الذي اعتادت أن تسرح فيه بتفكيرها، تؤلّف القصص في خيالها، وتحلم، أو تفكّر في أختها التي لم تَبْرَحْ ذاكرتها. وانتاب جو شعورٌ بالحزن، فالسُّنون تنصرم بسرعةٍ، وها هي تبلغ الخامسة والعشرين ولا يلوح لها شيءٌ في الأفق.

وفجأةً مثل أمامها شبح لوري، الذي انحنى وقبّلها، فشعرت بحنين شديد إليه وصرخت والغبطة تملأ كيانها: «حبّي تيدي!»

ودار بين الاثنين حديثٌ عاطفيٌّ حميمٌ، وذكريات، وعتاب ومسامحة. إذْ يحكي لوري لجو، كيف أحبَّ إيمي، كما حكى لها ظروف زواجه السريع بها. وتفهمت جو ظروفه، وشعرت بالسعادة لأنه أصبح رجلاً ناضجًا يُحسن التصرُّف. وتواعد الاثنان على الصداقةِ والمودّة والتعاون.

وبيّنَتْ جو الظروف الصعبة التي مرَّت بها في السنة الأخيرة حتى

إنّها باتت تشعر وكأنّها امرأةٌ في الأربعين. ولكنّ وجود أبيها وأمّها إلى جانبها وسعادته هو مع شقيقتها إيمي، جعلاها تشعر بالطمأنينة.

وفجأةً سُمع صوت إيمي وهي تصيح: «أين هي؟ أين حبيبتي جو؟»

وتقاطر أفراد الأسرة كلّها وراحوا يتبادلون العناق والقبل.

كان وجه إيمي مفعمًا بالسعادة، وصوتها يفيض بالرِّقّةِ، وحلاوة طباعها تكسبها مزيدًا من السحر فضلاً عن جمالها ورشاقتها.

بدأ الجميع بالدَّردشةِ، مُسترجعين ذكرياتِ الماضي بمسرّاتهِ ومآسيه خلال سنواتٍ طويلةٍ ماضيةٍ، وكلُّ ذلك في مدّةٍ لا تتعدَّى نصفَ ساعةٍ من الوقت.

وما إنِ انتهى وقت شرب الشاي حتى قُرع جرس الباب الخارجيّ. وفتحت جو الباب بلهفةٍ وفوجئت بشبح آخر ينتصب أمامها، شبح رجلٍ ملتحٍ يتطلّع إليها!

وصاحت جو: «أوه! السيد باير؟! لَكم أنا سعيدةٌ برؤيتِكَ!» فأجابها البروفسور باير: «وأنا سعيد برؤيتِكِ يا آنسة مارش». وتردّد قليلاً في الدُّخول بعدما سمع لغط أصواتٍ صادرةٍ من الطابق العلويّ.

قالَت جو: «تعالَ انضمَّ إلينا. لا يوجد سوى أفراد العائلة.. أختي والأصدقاء».

قال السيّد باير: «يُسعدني أن أراهم، وأنتِ هل كنتِ مريضةً يا صديقتي؟»

جو: «لا، لم أكن مريضة. كنت متعبةً وحزينةً لقد صادفَتْنا بعض المصاعب منذ لقائنا الأخير».

السيد باير: «لقد شعرت بالحزن من أجلك عندما سمعت بذلك».

وعرَّفت جو الجميعَ بضيفها وقد انتابها شعور بالاعتزاز والسعادة.

سُرّ السيد باير بالترحاب الشديد الذي استُقبل به من قِبَل الجميع. واستطاع بدوره أن يستأثر باهتمامهم، بمَنْ فيهم لوري الذي حاول أن يتجنّبه في البداية.

كانت جو تسترق النظرات إلى السيّد باير وتقول في نفسها: «ماذا كان يُضيركَ يا صديقي العزيز لو كنتَ قد تودّدت إليّ».

في هذه الأمسية، غنَّت إيمي أغاني بيث بصوتٍ شجيٍّ، وكان الجميع يصغون باستمتاعٍ، ولكنَّ صوتها كاد يختنق فجأةً وهي تغنّي السطر الأخير من أنشودة بيث المفضَّلة: «لا توجد على الأرض أحزان لا تستطيع السماء أن تُبرِئَها».

وهنا قالت جو: «فلْنسمعْ أخيرًا أغنية مينو ينشدها لنا السيد باير».

وقف السيّد باير في زاوية المكان حيث كانت تقف جو وراح يدندن ويهمهم استعدادًا للغناء قائلاً: «أتمنّى أن تصاحبوني بالغناء».

بعد أن أنهى السيد باير أغنيته الحلوةَ، فاجأه لوري وهو يتقدَّم منه مصطحبًا إيمي قائلاً: «زوجتي وأنا سعيدان جدًّا بلقائك يا سيّدي. إننا بانتظارِكَ».

شكره البروفسور بحرارة وبادله المجاملة. وقال وهو يخاطب السيدة مارش إنّه سيبقى في المدينة بضعة أيامٍ بسبب بعض الأشغال.

ترك البروفسور انطباعًا حسنًا عند الجميع. ولكنَّ جو راحت تتساءل بعدما غادر السيد باير المنزل: «تُرى، ما هو الشُّغل الذي حمل السيد باير على المجيء إلى المدينة؟»

الفصل التاسع والثلاثون

مولاي ومولاتي

قال لوري وقد جاء إلى بيت حميه في اليوم التالي وَوَجد زوجته في حضن أمّها كما كانت تفعل وهي طفلة: «سيدتي، هل تسمحين لي بزوجتي مدّة ساعة؟ لقد وصلت الأمتعة من باريس».

قالت السيدة مارش: «كيف لا! هيّا يا حبيبتي لقد نسيت أن لديكما بيتًا غير هذا». قال لوري: «ما جئتُ إلا لأنني لا أستطيع العيش من دون امرأتي الصغيرة أكثر من...» فقاطعته جو قائلةً: «دوّارة الريح لا تعمل بِلا رياح».

ردّ لوري قائلاً إن زوجته تصوّب اتجاهه حقًّا، وتسدِّد خطاه.

قالت إيمي بلهجةٍ وديَّة: «ادخل يا عزيزي. أحسب أنَّ ما تبحث عنه بين الأمتعة موجودٌ بين أشيائي.. فالرجال لا يعرفون شيئًا!»

قالت جو: «كيف ستتصرَّفان عندما تستقرّان معًا؟»

قال لوري: «لن نكون كسالى. سأعمل وأثبت لجدّي أنني لست ولدًا فاسدًا. أما إيمي فسوف تذهلكم بحسن ضيافتها في منزلنا وفي المجتمع الراقي حَوْلنا».

ما إن همّا بالمغادرة حتى كان البروفسور باير يفتح البوّابة بصبرٍ نافد.

وفي المساء قال لوري مخاطبًا زوجته: «سيدة لورنس، إن ذلك الرجل يريد أن يتزوّج جو».

- «إني آمل ذلك يا عزيزي».

- «إنّه جيّد، ولكنني كنت أتمنّى لو أنه أصغر سنًّا وأكثر غنًى».

- «لا يا عزيزي، لا تكن مهتمًّا بالشؤون الماديّة وحسب، فإذا كان أحدهما يحبُّ الآخر فلا يهمُّ العمر أو الغنى. إنّ المرأة لا تتزوج من أجل المال».

وهنا ذكّرها لوري بخبثٍ كيف أنّها كانت تودُّ أن تتزوج من أجل المال في وقتٍ من الأوقات. فقالت له إيمي: «أنا لم أفكّر بالمال عندما رضيت بك زوجًا. كنت سأتزوّجك حتى ولو كنت لا تملك شروى نقيرٍ، وأنت تعلم أنني سأسير معك مشوار الحياة إلى آخره حتى ولو كنت تكسب عيشك من التجديف في البحيرة».

لوري: «كيف يمكن أن أفكّر بغير ذلك وقد رفضْتِ من هو أغنى مني من أجلي؟»

وخَطَر على بال إيمي أن تسأله:

«هل يُحزنك أن تتزوّج جو السيد باير؟»

لوري: «أؤكّد لك أنني سأرقص في عرسها بسريرةٍ صافية. هل

تشكّين في ذلك يا حبيبتي؟» وكانت إيمي راضيةً عن هذه الإجابة التي أزاحت عن نفسها مخاوف الغيرة إلى الأبد.

قال لوري ممازحًا، وهو يخطر مع زوجته في غرفة الاستقبال وقد تأبّط ذِراعها:

«بودّي لو نستطيع أن نفعل شيئًا لهذا البروفسور المميَّز. هل نستطيع أن نخترع صلة قربى له بغنيٍّ يموت في ألمانيا ويترك له ثروة صغيرة؟»

فقالت إيمي: «إن جو سوف تكتشف الأمر وتفسد كلَّ شيءٍ. إنّها فخورةٌ به كما هو».

لوري: «على بركةِ الله. لن نتدخّل الآن، ولكن ستتحيّن فرصةً نستطيع أن نقدّم فيها شيئًا لهما. إنني مدينٌ لجو بتعليمي، وهي تؤمن بالناس الذين يسدّدون ما عليهم من دين».

فقالت إيمي: «ما أجمل أن نكون قادرين على مساعدة الآخرين. لقد كان هذا حلمي، وبفضلك ستصبح الأحلام حقيقة».

الفصل الأربعون

تحت المظلّة

في الوقت الذي كان لوري وإيمي يرتّبان منزلهما ويخطّطان لمستقبلٍ باسمٍ كان باير وجو يتمتّعان بالنُّزهات عبر الطرق والحقول الموحلة.

طرأت على جو خلال تلك الفترة تغيّرات كثيرةٌ، فقد باتت أكثرَ ابتهاجًا وأكثرَ اعتناءً بشعرها وزينتها. أما البروفسور باير فكان يتحدّث مع السيّد مارش في الفلسفة ويعطي ابنته دروسًا في الحبّ.

ظلّ البروفسور باير يتردَّد على أسرة جو طوال أسبوعين. ثم انقطع فجأةً ثلاثة أيامٍ، ما أثار قلق جو. وقالت جو في نفسها: «كان عليه أن يودِّعنا كأيّ رجل يتّصف بالكياسة». تذرّعت جو بحاجتها إلى شراء بعض الحوائجِ حتى تنزل إلى المدينة وتقابل السيد باير. والتقته بالفعل في طقس ماطر. وسألها باير: «ماذا تفعلين هنا يا صديقتي؟» واقترح عليها أن يحمل الصُّرّة التي كانت تحملها. قالت جو وهي تتأبّط ذراعه: «ظننّا أنك سافرت».

ـ «وهل أستطيع أن أسافر قبل أن أودِّع من كانوا في غاية الطيبة معي؟»

ـ «طبعًا لا، ولكنني علمت أنّك كنت مشغولاً بأمورٍ خاصة. لقد افتقدناك ولا سيِّما أبي وأمي».

ـ «وأنتِ؟»

ـ «وأنا دائمًا سعيدةٌ برؤيتك يا سيِّدي». قالت جو تلك العبارة وهي تحاول أن تجعل صوتها يبدو طبيعيًا.

أخبرها باير بأنّه سيعود قريبًا، حيث لم يعد لديه ما يفعله في المدينة. وقال إنّه سيأتي لزيارتهم قبل سفره. وشعرت جو بغصَّة من جوابه. فصارحها باير بأنَّ لديه فرصة عملٍ جيدةً تدرُّ عليه دخلاً أفضل يجعل حياة ولديه فرانز وإميل أيسر. وقال إن العمل الجديد سيكون بعيدًا مما سيجعل فرص لقاءاتهما أقلّ.

لم يكن باير خبيرًا بمشاعر النساء، ولم يفطن للنبرة اليائسة في صوت جو. اشترت جو ما كانت تريده من أحد المحالّ، واشترى لها باير بعض الأزهار. وطلب منها أن تساعده في شراء ثوبٍ لتينا، لأنّه يجهل هذه الأمور. أحسّت جو وهو يطلب منها هذا، برعشةٍ من البرودة الشديدة تجتاحها، وحاولت أن تخفي مشاعرها وقد أغاظها تصرُّف باير، ولكنَّها لم تستطع ذلك. وانهمرت الدموع على خدَّيها. كانت محبطةً ومتعبةً تريد أن تعود إلى الدار بأسرع وقت. وعندما سألها باير برقّةٍ عن سبب بكائها، لم تتردّدْ في القول بصراحةٍ: «لأنّك مسافر».

قال باير وهو يحاول أن يُمسك بكل ما يحمله من أشياء: «آه جو، ليس عندي الكثير من الحبِّ أعطيه لك. لقد جئت لأعرف ما إذا كنت تهتمّين بي. وانتظرت حتى أتأكّد ما إذا كنتُ أكثر من مجرّد صديقٍ. فهل أنا كذلك؟ هل ثمَّة متسعٌ في قلبك لفريتز العجوز؟»

قالت جو: «أجل!» وأحاطته بذراعيها ونظرت إليه نظرة تعبِّر عن سعادتها بمتابعة مشوار الحياة معه، رغم عدم وجود مأوى أفضل لهما من مظلّته العتيقة.

سألت جو وهما يسيران معًا لا يأبهان لكلِّ ما حولهما: «قل لي، ما الذي أتى بك أخيرًا في الوقت الذي كنتُ بأمسِّ الحاجة إليك تمامًا؟»

أخرج باير ورقةً من جيبه، وقال: «إنّها هذه. لقد وجدت هذه الورقة مصادفةً، وكان فيها أبياتٌ من الشعر خُيّل إليّ أنّها تدعوني للمجيء».

وقرأت جو هذه الأبيات:

امرأةٌ في بيتٍ وحيدٍ

تبدو كبيت شعرٍ حزينٍ

تتطلع إلى حبٍّ كبيرٍ آتٍ

في يوم صيفٍ ماطرٍ

قالت جو، وهي تمزِّق الورقة: «إنّه شعرٌ رديءٌ، ولكنني كنت

أحسُّ بتلك المشاعرِ عندما كتبته». وتابعت قائلةً: «ما الذي أخّرك كلَّ هذا الوقت؟»

وشرح لها باير ظروفه. ما كان في وسعه أن ينتزعها من بيت أهلها قبل أن يوفِّر لها المنزل المناسب فهو لا يملك سوى علْمه.

قالت جو بحزم: «أنا سعيدةٌ لأنّك فقيرٌ، فأنا لا أستطيع أن أتحمَّل زوجًا غنيًّا. لا تخشَ الفقر فقد خبرتُه طويلاً، ويسعدني أن أعمل من أجل مَن أحبُّهم».

قال باير: «هل تستطيعين الانتظار وقتًا طويلاً يا جو؟»

كان بحاجةٍ إلى فترةٍ من الوقت حتى يستطيع أن يؤمِّن مستقبل ولديه ومعيشتهما، فضلاً عن تأمين حياته. وقبِلَت جو الانتظار فكلاهما يحبُّ الآخر، وهذا ما يجعل الانتظار سهلاً. عليهما الآن أن يكافحا وأمّا المستقبل فهو بيدِ الله.

أسعدت كلماتُها قلب باير، فقد منحته الأمل والشجاعة. أما هو فلم يكن يملك سوى القلب العامر بالحب ويدين خاليتين.

قالت له جو عند عتبةِ الدار وهي تعانقه: «لن تبقى يداكَ خاليَتَيْنِ بعدَ الآن». وقبّلته تحت المظلّة، وأدخلته البيت وأغلقت الباب خلْفهما.

الفصل الواحد والأربعون

وقتُ الحصاد

طَوال سنةٍ ظلَّ الأستاذ وجو يكدّان معًا، ويأملان ويتواصلان ويتراسلان. وفي بداية السنة الثانية توفِّيتِ العمّة مارش فجأةً تاركةً لجو ميراثًا طيّبًا. إنّه بيتٌ عتيقٌ ولكنّه فسيحٌ وجميلٌ. وظنّ الجميع أنّ جو ستبيعه، فهو بيتٌ كبيرٌ ذو حديقةٍ واسعةٍ ويحتاج إلى مال كثير لصيانته وخدمته. ولكن جو أصرّت على البقاء فيه. فهي تريد أن تحوِّله إلى مدرسة خاصةٍ بالأطفال، تعمل هي وفريتز فيها. وقالت جو إنّها ليست فكرةً طارئةً فقد راودتها الفكرة منذ زمن بعيدٍ. فكم ستكون سعيدةً حين تحقق الحلم الذي كان يراودها.

وافق الوالدان على رأي ابنتهما. كانت سنةً رائعةً، وبدت الأمور تسير بسرعةٍ وعلى أحسن ما يرام. وكانت جو تفكّر بأنَّ ذلك المنزل في بلامفيلد يصلُحُ أن يكون مكانًا عائليًا للأولاد الذين يحتاجون إلى التعليم والعناية وحسن المعاملة.

وسرعانَ ما تزوَّجت جو وحقَّقت أحلامها، ودخل مدرستها

الكثير من الأولاد الذين كانوا يَدْعونها «ماما باير». واكتملت سعادتها بإنجاب طفلين: «روب» على اسم جدِّه، و «تيدي» الذي اكتسب صفات أمِّه وأبيه.

كان هناك الكثير من العطل والإجازات في بلامفيلد، ومن أبهجها عطلة قطاف التفاحِ السنوية، حيث كانت تتجمّع أسرة مارش ولورنس وبروك وباير لتحتفل بهذه المناسبة. وقد شهدت حديقة ذلك المنزلِ، بعد خمس سنواتٍ من عرس جو، واحدةً من تلك الحفلات الرائعة التي شارك فيها الجميع مع أطفالهم بسعادةٍ غامرةٍ وبهجةٍ وحبورٍ، وكانت جو في ذروة سعادتها في ذلك اليوم. وبعد أن انتهى القطاف ووضع العشاء على العشب راح الجميع يشربون الأنخاب، وينشدون الأغاني، ويضحكون ويمرحون.

كان الجميع في غاية السعادة. فباير بات يشعر بأنّه محظوظ بسبب ما آلتْ إليه الأمور وما حقّق مع زوجته من نجاح. واعتبرت ميغ أنّها حقّقت كلَّ ما تتمنّاه مع زوجها جون. وقالت إيمي إن ما تحقّق في حياتها لم يكن ضمنَ ما كانت تخطِّط له، ومع هذا فإنها لا تتمنى أن تغيِّرهُ أو تبدِّلهُ، فهي وزوجها راضيان عن حياتهما، وشكرتِ الله على سعادتها.

أما جو فقد قالَت: «لا حاجةَ بي إلى القولِ إنّي سعيدةٌ، فهذا ما يستطيع كلُّ امرىءٍ أن يراه، فأنا سعيدةٌ بزوجي وولديّ وقد أعطاني اللَّهُ أكثر ممّا أستحقّ».

قالت السيّدة مارش: «أعتقد أن حصادك، يا جو، كان جيّدًا».

فقالت جو باندفاعٍ طفوليّ: «ولكن لا يصل إلى نصف حصادك يا أمّاه. فنحن لا نستطيع إلاّ أن نقدّم آيات الشكر على ما قدّمتِه لنا».

قالت إيمي: «آمل أن يكون حصادنا أوفر في السنوات المُقْبلة».

وقالت ميغ بصوتٍ حنونٍ: «حصاد كبير يكون لك الفضل فيه».

ولم يسع السيدة مارش التي تأثّرت بالغ التأثُّر بكلمات مَن حولَها إلاّ أن تمدّ يديها وكأنها تريد أن تعانق جميع بناتها وأحفادها، وتقول بصوتٍ ملؤُهُ المحبّة والأمومة، والامتنان والتواضع: «أطالَ اللّهُ أعماركنّ يا بناتي الحبيباتِ، فأنا لا أستطيع أن أتمنّى لكنّ إلاّ سعادةً أعظم من هذه!»

الاستثمار التربوي

أ ـ في تحليلِ القصّةِ ومناقشتِها:

١ ـ ما الّذي قدّمَتْه القصّةُ في الصّفحاتِ الأولى منها؟

٢ ـ لِمَ لا تريد الأمُّ أن يعود الوالد سريعًا كما ترغبُ بناتُها؟

٣ ـ هل تلمحُ في الفصلِ الثّاني ملامحَ إنسانيّةً في أعمالِ الشخصيّات؟ حدِّدْ هذه الأعمال وانسبْ كلاًّ منها إلى صاحبِهِ.

٤ ـ ماذا يعني أن تتكتّم ميغ عمّا حصلَ لها من مُنَغِّصاتٍ في حفلةِ رأسِ السّنة؟

٥ ـ كانَتْ إيمي شغوفة بالرّسم فلُقِّبت بـ «رافاييل الصّغير»، من هو «رافاييل»؟

٦ ـ بدَتْ جو في الفصلِ الخامسِ ذاتَ ذكاءٍ وحسن تقدير وفهمٍ لكثيرٍ منَ الأمور، أَشِرْ إلى بعضِ ما لاحظتَهُ من هذهِ الأمورِ الّتي دلّت على ذكائها.

٧ ـ أيُّ الفتاتين (جو أم إيمي) كانَتْ مذنبةً تجاهَ أختِها؟ علِّلْ ما تذهَبُ إليه.

٨ ـ «مَتاعُ الغرور» عنوانُ الفصلِ التّاسعِ، أينَ تجد مِصداقَ المعنى الّذي حملَه هذا العنوانُ في هذا الفصل؟

٩ ـ كيف عرَفَتِ البناتُ أنّ أعمالَ تدبير المنزلِ صَعبة؟

١٠ ـ لماذا تكونُ الفرحةُ أكبرَ ما تكونُ إذ تبدأُ ساعاتُ الشّدّةِ بالانفراجِ، كما جرى لجو وميغ في نهايةِ الفصلِ الخامسَ عَشَر؟

١١ ـ ماذا يعني أن تحسّ في يومٍ منَ الأيّامِ أنّ شروقَ الشّمسِ رائِع؟

١٢ ـ هل كانَ من المحتَملِ أنْ تُقيمَ فتاةٌ صغيرة مثل إيمي في منزل عجوز كي تقومَ بخِدمتِها؟ لماذا؟

١٣ ـ هل كانَتِ الأمُّ مُصيبةً في الآراءِ الّتي أبدتها، عندَ نهايةِ الفصلِ السّابعَ عَشَرَ، في شأنِ زَواجِ ابنتِها ميغ؟ لماذا؟

١٤ ـ علامَ يدُلُّ تصرُّفُ لوري مع ميغ في الفصلِ الثّامنَ عَشَر؟

١٥ ـ علامَ يدُلُّ اعترافُ المُخطِىءِ بخطئِهِ واعتذارُهُ عنه؟

١٦ ـ علامَ يدُلُّ زوالُ الحِقدِ سريعًا من قلوبِ بعضِ النّاس؟

١٧ ـ هل كانَتِ العمّةُ مارش رافضةً حقًّا زواجَ ابنةِ أخيها «ميغ» بالشابّ «جون»؟ هل عرَفْتَ لماذا افتعلت أسلوبَ التّهديد؟

١٨ ـ تُرى، لماذا أنَّبَتْ «جو» لوري على إسرافِهِ حين قدّمَ هديّةَ العُرسِ لأختِها ميغ؟

١٩ ـ باركتِ العمّة مارش لابنةِ أخيها ميغ عندَما تمَّ زواجُها وفي نفسها غُصّة. تُرى فيمَ هذهِ الغُصّة؟

٢٠ ـ ما تعليقُكَ على تخلّف أكثر المدعوّاتِ عن تلبيةِ الدّعوة في الفصلِ الثالثِ والعشرين؟

٢١ ـ في الفصل الرّابع والعشرينَ حقّقت جو عددًا منَ النّجاحاتِ في أعمالِها القَصَصيّةِ، اذكُرْ ما ترى من الأسبابِ الّتي أوصلَتْها إلى هذا النّجاح؟

٢٢ ـ ما الدّرسُ المستفادُ، من الفصلِ الخامسِ والعشرين، في الحياةِ الزّوجيّة؟

٢٣ ـ ما هِيَ العواقِبُ التي يمكن الحصولُ عليها من حُسْنِ سلوكِ الإنسانِ معَ الآخرين؟ هاتِ مثالاً من أحدِ الفصلينِ السّادسِ والعِشرينَ أو السّابعِ والعِشرين.

٢٤ ـ في الفصلِ الثّلاثينَ نرى أنَّ الأستاذَ باير لم يَشَأْ أنْ يُصارِحَ جو فيكشِفَ لها عن أمرِ ما تنشرُهُ في إحدى الصُّحفِ مُنتظِرًا أنْ تبدأَ هيَ فتُخبرَهُ عن منشوراتها، لماذا كانَ ذلكَ منه؟

٢٥ ـ سألَتْ جو في الفصلِ التّاسعِ والثّلاثينَ لوري وإيمي، قالت: «كيف تتصرّفانِ عندما تستقرّان معًا؟» فأجابَها جو: «لن نكونَ كُسالى». هل ترى في جوابه هذا إشارةً إلى حَديثٍ سابقٍ لها معَه؟ ما هوَ هذا الحديث؟

٢٦ ـ هل أعجبَتْكَ العَلاقةُ الأُسْريّةُ في هذهِ القِصّة؟

٢٧ ـ ما العِبَرُ والفوائدُ الاجتماعيّةُ الّتي قدَّمَتْها هذهِ القصّة للقارىء؟

٢٨ ـ هل تستطيعُ أن تحدِّد المواقفَ الحرجةَ في هذهِ القصّة؟ ما هيَ؟ وماذا تسمّى مثْلُ هذهِ المواقفِ في فنِّ القصّة؟

٢٩ ـ في الحياةِ العاديّة للنّاس أفراحٌ وأتراحٌ، هل كانَتْ هذهِ القصّةُ مشاكلةً للحياةِ العاديّةِ للنّاس؟ اذكرْ بعضَ أفراحِها وبعضَ أتراحِها.

٣٠ ـ يقالُ في القِصّةِ: إنّها واقعيّةٌ، إذا كان من الممكن لأحداثِها أن تقَعَ في حياةِ النّاسِ، فهل تَعُدُّ هذهِ القِصّة واقعيّةً؟

٣١ ـ مكانُ الأحداثِ في هذه القِصّةِ أميركا وأوروبا، هل ترى أنّ هذه الأحداث يمكن أن تقع في مجتمَعٍ كمجتمعِنا العَرَبيِّ؟ لماذا؟

ب ـ في الشّرح والتّفسير:

١ ـ ما مَعاني التّعابير التّالية:

ـ هذهِ العبارةُ دارَتْ في خلَدِ كُلٍّ منهُنَّ:

.....

ـ لا يتعدّى مصروفُهُنَّ دولارًا واحدًا:

.....

ـ نُؤثِرُ جيرانَنا على أنفسِنا:

.....

ـ أخذ منها الإعياءُ كُلَّ مَأْخَذ:

.....

ـ شعَرَتْ إيمي أنَّ وراءَ الأَكَمةِ ما وراءَها:

.....

ـ تشُدُّ جو من أَزْرِ أُختِها:

.....

ـ لوري وإيمي يجدّفان معًا في عُبابِ مياهِ الحياةِ المُشتَرَكة:

.....

ـ لا نملِكُ شَروى نقير:

.....

ـ دوّارةُ الرّيحِ لا تَعمَلُ بلا رِياحٍ. هذا مَثَلٌ غربيٌّ، فيمَ يُضْرَب؟

.....

٢ ـ فسِّرْ معانيَ الألفاظِ التّاليةِ بالاعتمادِ على أَحَدِ المعجمات:

ـ التّفريط: .....

ـ الإفراط: .....

ـ أَثَرَ: .....

ـ إيثار: .....

ـ أَثَرة: .....

ـ الحَرون: .....

ـ يضطجع: .....

ـ رانَ: .....

ـ لَحوح: .....

جـ ـ في اللّغة والنّحو:

١ ـ هاتِ أضدادَ الكلماتِ التّاليةِ معَ الضّبطِ بالشّكل:

بذّرَ ≠ ..... ضئيل ≠ ..... حُبور ≠ .....

بَشوش ≠ ..... الحَرون ≠ ..... تزهو ≠ .....

تعي ≠ ..... صُلْبٌ ≠ ..... رَفَضَتْ ≠ .....

التِواء ≠ ..... حافلةٌ ≠ ..... الثّراء ≠ .....

٢ ـ هاتِ مرادفًا لكلٍّ ممّا يلي معَ الضّبطِ بالشّكل:

يكابِدُنَ = ... حُبورٌ = ... مُفْعَمٌ = ...

لاذَتْ = ... آثَرَتْ = ... الصّارمة = ...

الأَكَمة = ... السَّكينة = ... يُفاجَأُنَ = ...

تُتاحُ = ... تَهَيَّبَ = ... التَّوقُ = ...

٣ ـ اجمعْ كلاًّ من الأسماءِ التّاليةِ معَ الضّبطِ بالشّكل:

بَيضاء ← ..... المُهْرُ ← ..... أَحْمَر ← .....

كُبْرى ← ..... الصّباح ← ..... المِزاج ← .....

أَنْتِ ← ..... شَكْوى ← ..... عجوز ← .....

الأُخرى ← ..... مِنّة ← ..... قَلَنْسُوةٌ ← .....

٤ ـ هاتِ المفردَ من كلٍّ ممّا يلي مع ضبطِهِ بالشكل:

فِتْيةٌ ← ..... فَتَياتٌ ← ..... صِبْيةٌ ← .....

صَبايا ← ..... زَرْقاوَينِ ← ..... كِبارٌ ← .....

أَرائِكُ ← ..... حَلْوَيات ← ..... جياع ← .....

أَسْمالٌ ← ..... أجواء ← ..... الحَواني ← .....

٥ ـ لِمَ كُتِبَتِ الهمزةُ بالطّريقةِ الّتي تراها في ما يلي:

ضئيل: .....

نُرْجِيء: .....

دِفْءٌ: .....

٦ ـ لِمَ كُتِبَتِ الألف النّهائيّةُ كما تراها في ما يلي:

بدا: .....

مشى: .....

تتمنّى: .....

٧ ـ ضع خطًّا تحت الخطأ في ما يلي:

لا تتأخّرْ عنِ السّاعةِ الحاديةَ عَشْرَة. لا تتأخّر عنِ السّاعةِ الحاديةِ عَشْرة.

مدَّ الجَدُّ يَداهُ مرحِّبًا. مدّ الجدُّ يدَيهِ مُرَحِّبًا.

إنّ الجدَّ لم يَكُنْ سعيدًا. إنّ الجدُّ قد كان سعيدًا.

٨ ـ حوّل الضّميرَ المنفصلَ في ما يلي إلى ضميرٍ متّصل:

ـ إيّاها وَعَدَ بأنْ يزورَ أُسرتَها.

.....

ـ إيّاهُما وَعَدَ بأنْ يزورَ أُسرتَهُما.

.....

ـ إيّاهُنّ وَعَدَ بأنْ يزورَ أسرتَهُنّ.

.....

٩ ـ أكمِل كلاً منَ العبارات التّاليةِ بالطّريقة الّتي أُكْمِلَتْ بها الأولى منهنّ:

ـ هما صاحتا بصَوتٍ واحدٍ، وهنَّ صِحْنَ بصوتٍ واحدٍ.

ـ الشّبابُ ساروا، والبناتُ .....

ـ الفِتيانُ يقومونَ بأعمالِهِمْ، والفَتَياتُ ..... بأعمالِـ .....

ـ أنتِ تَذوقينَ الطَّعامَ، وأنتُنَّ ..... الطَّعامَ.

ـ الأمُّ تَتَمنّى لبناتِها، والأمّهاتُ ..... لبناتـ .....

١٠ ـ أكمل كلاً من العبارات التّالية على طريقة الأولى منهنّ:

ـ لاق مَلْبَسُها، فمَلْبَسُها لائِقٌ.....

ـ اهترأ ثوبي، فثوبي .....

ـ استعدَّتِ الكبرى للحفلةِ، فالكبرى .....

ـ مَشَتِ الفتاةُ، فالفتاةُ .....

ـ حَيَّتْهُما السَّيِّدةُ، فالسَّيِّدةُ .....

١١ ـ أعرِب ما يلي:

ـ احمرَّ وجهُ إيمي خَجَلاً.

ـ صِحْنَ بصَوتٍ واحدٍ.

ـ أليسَ الأمرُ كذلك؟

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

الفهـرس

الفصل الأول: أسرة مارش ٥
الفصل الثاني: عيد ميلادٍ سعيد ١١
الفصل الثالث: الصبي لورنس ١٤
الفصل الرابع: أعباء وهموم ١٩
الفصل الخامس: حسن الجوار ٢٤
الفصل السادس: بيث تعجب بالقصر ٣١
الفصل السابع: إيمي تتعرّض للمهانة ٣٥
الفصل الثامن: جو تقابل الشيطان ٣٧
الفصل التاسع: متاع الغرور ٤٢
الفصل العاشر: نادي بيكويك ٤٦
الفصل الحادي عشر: اختبارات ٤٧
الفصل الثاني عشر: مخيَّم لورنس ٥٠
الفصل الثالث عشر: أسرار ٥٥
الفصل الرابع عشر: برقية ٥٨
الفصل الخامس عشر: أيام سود ٦٣

الفصل السادس عشر: وصيّة إيمي ٦٧
الفصل السابع عشر: حديث خاصّ ٧١
الفصل الثامن عشر: لوري يرتكب حماقة ٧٣
الفصل التاسع عشر: المروج الخضراء ٧٦
الفصل العشرون: العمّة مارش تحلُّ المشكلة ٨٠
الفصل الواحد والعشرون: شائعة ٨٦
الفصل الثاني والعشرون: العُرسُ الأوّل ٨٩
الفصل الثالث والعشرون: محاولات فنية ٩٢
الفصل الرابع والعشرون: دروسٌ في الأدب ٩٦
الفصل الخامس والعشرون: خبرات منزلية ٩٩
الفصل السادس والعشرون: دعوات ١٠٣
الفصل السابع والعشرون: عواقب الأفعال ١٠٧
الفصل الثامن والعشرون: متاعب موجعة ١١١
الفصل التاسع والعشرون: رسائل جو ويومياتها ١١٥
الفصل الثلاثون: الصديق الجديد ١١٧
الفصل الواحد والثلاثون: آلام الحبّ ١٢٢
الفصل الثاني والثلاثون: سرُّ بيث ١٢٦
الفصل الثالث والثلاثون: انطباعات جديدة ١٢٨
الفصل الرابع والثلاثون: لورنس الكسول ١٣٠
الفصل الخامس والثلاثون: وادي الظلّ ١٣٥
الفصل السادس والثلاثون: السلوان والحبّ المتجدِّد ١٣٧
الفصل السابع والثلاثون: الكتابة تذهبُ الوحدة ١٤١

الفصل الثامن والثلاثون: مفاجآت حلوة ١٤٤
الفصل التاسع والثلاثون: مولاي ومولاتي ١٤٨
الفصل الأربعون: تحت المظلّة ١٥١
الفصل الواحد والأربعون: وقت الحصاد ١٥٦
الاستثمار التربويّ ١٥٩
الفهرس ١٦٩

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

نِساء صَغيرات

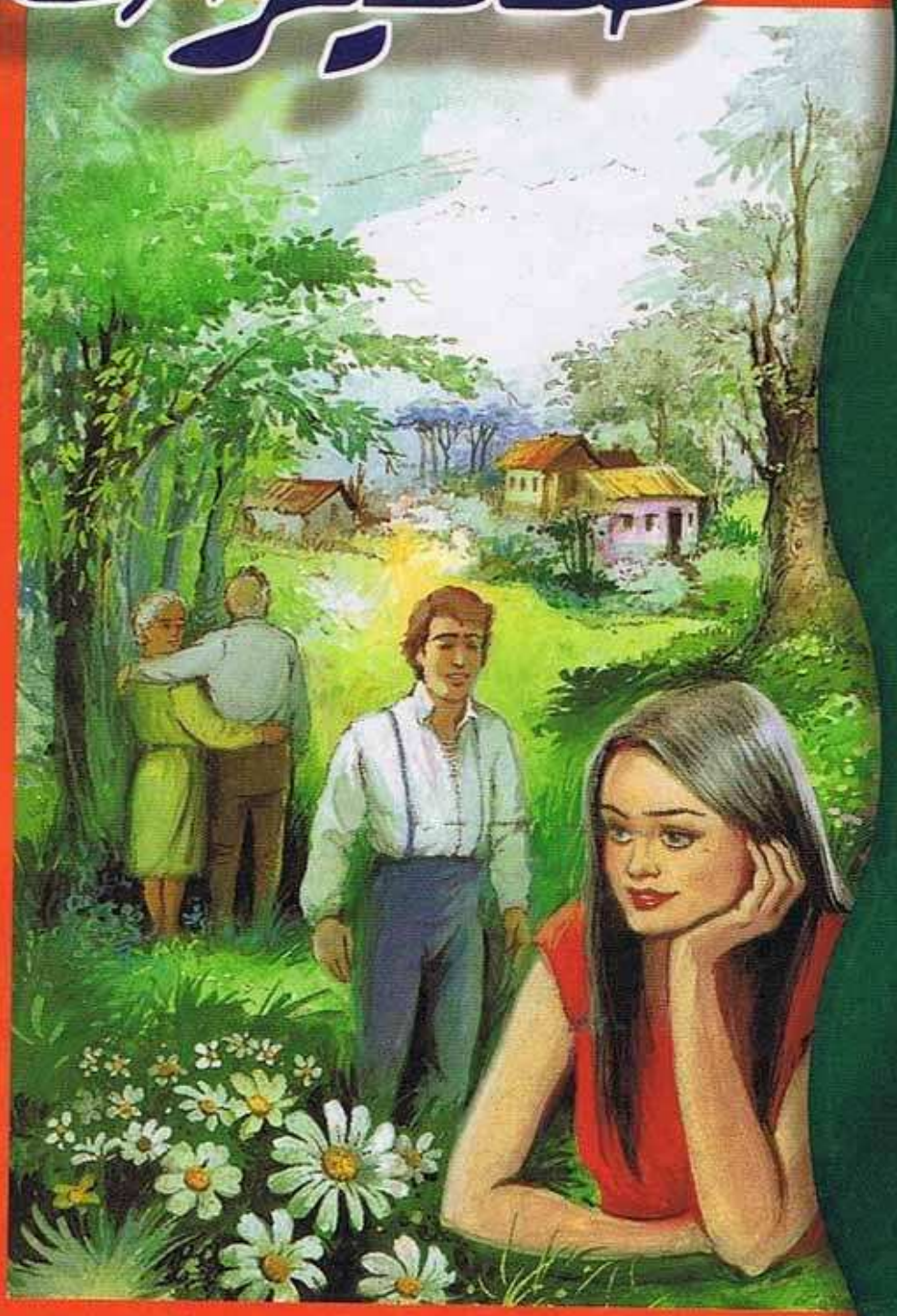

لويزا ماي ألكوت

دار العلم للملايين